

الحاشية على قصص الأنبياء
والأشياء العجائب

طبعة دار الشروق الأولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة ١٩ شارع حراد جى - هاتف ٣٩٣٤٨١١ - ٣٩٣٤٥٧٨
ولمبا شروق - لكسى 93091 SHROK UN
بيروت ص ب ٨٠٩٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
ولمبا داشروق - لكسى SHROK 20175 LE

فتان فوق شوشه

أجلى عشيق قطبنا الحبيب
في الشجر العزلي

دار الشروق

هَذَا الْكِتَابُ

بقلم : فاروق شوشة

كثيراً ما كنت أتوقف - أثناء البحث في كنوز لغتنا الجميلة - أمام نصّ شعري فائن ، لشاعر عربي عاشق ، ينطق بصدق العاطفة والشعور ، وجمال التعبير والتصوير والأداء ، وأقول لنفسي : ما السبيل إلى أن يضمّ هذا النصّ وأمثاله من عيون الشعر العربي ، كتاب واحد ، يسهل الاطلاع عليه ، والرجوع إليه ، والطواف بين صفحاته . . . وكانت البداية . . .

إن شعرنا العربي على امتداد قرون متطاولة حافل بالكنوز الشمينة ، والدرر الكامنة ، تنتظر دائماً من يجلوها ويعرضها ، مشرقة وضيئة ، نابضة بالحس الحضاري والوجدان الإنساني اللذين اتسمت بهما خلال هذه المسيرة الطويلة الممتلئة . وفي الوقت نفسه ، ما أندر المجموعات والمختارات الشعرية التي صدرت عن مكتبتنا العربية ، قديمها وحديثها ، لتضع بين يدي القارئ العربي ، والقارئ الأجنبي أيضاً ، تصوّراً عامّاً لروح الشعر العربي ، وإطاراً عامّاً لأبرز شخصياته وأعلامه ، وأكثر ملامحه صدقاً وأصالة ، اللهم إلا بضعة دواوين شعرية قليلة كالمفضليات للضبي والأصمعيات لأبي سعيد الأصبغي

وجهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ومختارات شعراء العرب لابن الشَّجْري .

ثم كان هناك لون آخر في تبويب هذه المختارات وتصنيفها بدأه أبو تمام بديوان الحياسة وتابعه البحتري ، والخالديان ، وابن الشجري في حماساتهم ثم أبو هلال العسكري في ديوان المعاني . وأخيراً كان ديوان الشعر العربي الذي اختاره وصنّفه وقدم له الشاعر علي أحمد سعيد (أدونيس) . . . وكان صدوره منذ سنوات قليلة .

وظلت المكتبة العربية ، مكتبة الشعر العربي ، تعاني هذا الفراغ الكبير ، خاصة ونحن نترك الآن عصور الموسوعات والكتب الأمهات ونتجه مع إيقاع العصر وإزدحام متطلبات الحياة إلى المختصرات والمختارات : المبوّبة ، الموضوعية الاختيار ، المعتمدة في تصنيفها على ذوق عصري ، وفكر جديد ، يكشفان في الأثر الأدبي والشعري أبعاداً جديدة ، ويُسلِّطان عليه رؤية جديدة كاشفة ، وبهذا يصبح تحاورنا مع التراث تحاوراً خصباً بناءً ، لا يكتفي بمجرد التكرار أو إعادة الحفظ والاستظهار ، وإنما يتجاوز ذلك إلى إعادة عرضه وتنسيقه وتنظيم جداوله وروافده ، وإعادة اكتشافه والوعي به من خلال حساسيتنا الجديدة ورؤيتنا العصرية المتفتحة ، بهذا وحده نعطي للتراث فرصة أن يحيا فينا وأن نحيا فيه ، وأن يصبح له حق الامتداد الفعال والصحيح في حياتنا الجديدة .

وآثرتُ أن تكون البداية قصائد الحب في شعرنا العربي ، وما أكثرها ، وما أحفلها بالقيم الإنسانية والفنية والحضارية . ماذا لو اخترت من بينها أجمل عشرين قصيدة ، ليعيد تأملها وتذوقها القارئ

المعاصر ، مع قدر يسير من التقديم ، للنص والشاعر معًا ، بحيث يتم وضع القصيدة في إطار عصرها ، وفي داخل مناخها النفسي والتاريخي ، وفي إطار حركة الشعر العربي ودورانه المستمر .

وتوقعت أن يشور سؤال طبيعي : ولكن لماذا هذا الرقم بالذات (عشرون) ؟ لماذا لم تكن هذه القصائد ثلاثين أو خمسين أو خمسين وعشرين أو أكثر أو أقل ؟

وهو سؤال كان سيتخذ له مكانًا أيضًا لو أن الاختيار قد وقع على رقم آخر ، والأرقام أولاً وأخيراً مسألة اعتبارية ! .



هذا الكتاب إذن رحلة مع عشرين قصيدة حب ، تبدأ من تخوم العصر الجاهلي ، فنتخير لهذا العصر شاعرًا يمثل حسنيته ونهمه وإقباله على متع الحياة وتوزعه بين يوميه : يوم فروسيته وكرمه ويوم طهوه ومؤانسته ، وهي سمات العربي الفارس القديم ، في حبه ونظراته إلى المرأة كما نجد لها لدى المنخل الإشكري .

ثم نتابع المسيرة ، ووفقًا مع صفحات شعرنا الأموي والعباسي ، يطالعنا وجه عمر بن أبي ربيعة : فتى قريش اللاهبي الماجن المولع بتعقب الحسان والتشبيب بهن ، ووجوه الصفوة الممتازة من الشعراء العذريين : مجنون ليلى وجميل بثينة وقيس لبنى وكثير عزة ، وعلى مقربة من هؤلاء العباس بن الأحنف ، وبين الطائفتين ينفرد يزيد بن معاوية ، ثم نطالع وجوه ابن الرومي وأبي فراس الحمداني والشريف الرضي ودوقلة المنبجي وابن زريق البغدادي ثم صفى الدين الحلبي - على غير ترتيب مقصود - وكلها وجوه تضيف لتجربة الحب في الشعر

العربي ألوانًا وتنوعات ومذاقات مختلفة ، تُثريها وتعمقها ، وتكشف عن جوهر الإنسان العربي والشاعر العربي في نظريته إلى الحياة والوجود من خلال المرأة . .

وعلى مسافةٍ من هؤلاء نلتقي بوجهين آخرين يمثلان شعر الأندلس والمغرب العربي هما : ابن زيدون والحُصَري القيرواني ، ثم يطالعنا العصر الحديث لتتخبر من بين أعلامه : الشابي وعلي محمود طه وإبراهيم ناجي ومحمود حسن إسماعيل .



يبقى بعد هذا أن نشير إلى أن كل قصيدة من هذه القصائد العشرين امرأة جميلة ، امرأة معشوقة ، افتن في تصويرها وتجسيد مفاتها والهيام بها شاعر عربي ملهم ، أضفى عليها من إبداع ريشته وحرارة عاطفته ما جعلها لوحة مكتملة الأبعاد والسمات غنية بالفن الجميل ، والشعور الصادق معًا .

فلنتأمل نحن - بذوق أبناء القرن العشرين - هذه الباقية من قصائد الحب ، ولنتأمل كيف كان الشاعر العربي يرى محبوبته وكيف كانت صورتها في نفسه ، شكلاً وملامح ووجداناً ، وإلى أي حد يلتقي الكثيرون من الشعراء في رسم لوحة بعينها هي صورة هذه المحبوبة من المخارج ، تمثال جمال ، بمقاييس خاصة ، من خلال ذوق صحراوي معين ، خلع ظله على عصور شعرية متتابعة .

ثم لتأمل كيف استطاع الشعراء العذريون أن يكسبوا تجربة التعبير عن الحب أعماقاً جديدة وملامح وسمات لم تكن لها ، وكيف أصبحت نظرتهم إلى المرأة المحبوبة نظرة إلى كائن إنساني ، يموج بالمشاعر

والعواطف والأحاسيس ، وكيف ترك لنا هؤلاء العذريون في قصائدهم خلاصة لوعتهم وحرمانهم وتعففهم وعشقهم السامي المجرد ، هذا العشق الذي رفدته تقاليد البادية العربية ثم غدّته قيم الإسلام ومثله العليا ، فالتقت فيه قيم الفروسية والنبيل والنخوة بقيم التعفف والتسامي والتطهر ، والذي أصبحت آثاره الشعرية - فيما بعد - ذخيرة فنية واجتماعية وحضارية نادرة المثال ، موفرة العطاء .

ثم لنمض مع قصيدة الحب العربية نفاذاً في التاريخ ، وعبوراً إلى أقطار وبلدان عربية جديدة ، وتجسّداً لحلم العاشق العربي ، في بغداد والقيروان والأندلس وتونس والقاهرة ، عبر عصور شتى ، وتراكمات حضارية ونفسية شتى ، فهي مرصد صادق التمييز والرصد لحقيقة هذه المسيرة التي قطعها الإنسان العربي في رحلة الزمان والمكان ، منطلقاً من إसार الماضي والمتوارث انعطافاً إلى آفاق الجدة والمعاصرة .

★ ★ ★

ولسنا نزعم أن هذه القصائد ، هي وحدها أجمل القصائد وأروعها وأكثرها تمثيلاً لحقيقة شعر الحب في ديوان الشعر العربي الكبير ، إنه مجرد اختيار خاص ، ساعد عليه ميل وهوى ، كثيراً ما تجاذبني إلى بعض القصائد المختارة ، فعشت فيها طويلاً ، وتأملت فيها كثيراً ، فلما سنحت الفرصة لوضعها داخل هذا الإطار كانت أسبق من غيرها إلى ذاكرتي واهتمامي ، فعنيت بها قبل سواها . .

ومن المؤكد أن في شعرنا العربي عشرات بل مئات من قصائد الحب الجميلة ، لم تزل قابضة في مكانها بين الصفحات المطوية ، التي تراكم

عليها الإهمال والنسيان ، وأكاد أحس بها تتللمل في رقدتها الطويلة ،
لعل يدًا تمتد إليها ، تنفض عنها الجحود والتنكر ، وتعيدها إلى مكانها
من دائرة اهتمامنا وتدوقنا . . وفي هذا فليتنافس المتنافسون . ولا شك
أن قارئنا العربي هو الرابع في النهاية عندما يجد بين يديه عشرات
المختارات والمصنّفات والدواوين التي تعيد ماء الحياة إلى هذه الكنوز
الدفينة ، واللوحات الفنية الإنسانية النادرة .

وأتركك أيها القارئ ، مع هذه القصائد العشرين ، التي تشكل في
مجموعها وثيقة شعرية وعاطفية فريدة ، تعطي لحناً أساسيًا ممتدًا ،
متعدد الإيقاعات والأنغام ، متنوع المقامات والضروب ، لتعبير
الشاعر العربي عن تجربة الحب .
وما أروع من تعبير !

فاروق شوشة

فتاة الخذر

للمنخل الميشكري

غاية ' ما تقوله لنا عنه كتب الأدب والتراث إنه شاعر جاهلي ، حفظ لنا الرواة قصيدة له ، لاهية ، ماجنة ، وهو إلى جانب هذا شاعر متظرف مؤثر للسهولة في القول .

فإذا ما أردنا الاستزادة ، ورجعنا إلى أمهات كتب التراث وجدناها تقول عن هذا الشاعر : اتهمه النعمان بن المنذر بامرأته « المتجردة » ، وكانت ذا جمال فائق ، فأغرقه أو دفنه حياً ، أو أخفاه ، ويضرب به المثل لمن هلك ولم يعرف له خبر .. مات كما يروى سنة ستائة وثلاث ميلادية .

لنحاول إذن أن نسلك سبيلاً آخر يقربنا إلى هذا الشاعر الجاهلي الذي استطاع أن يعيش في ذاكرة الشعر العربي بقصيدة واحدة ، ليست من معلقات العرب ، ولا مذهباتهم ، ولا هي من حماسهم ومفاخرهم ، ولا هي في تسجيل مآثرهم ومفاخرهم - إنها شيء آخر غير هذا كله .. وليكن هذا السبيل هو قصيدته

نفسها ، نستقرئها حقيقة هذا الشاعر ، وصورة نفسه ، ونطل
منها على وجدانه وأشواقه ومطامحه ..

شيء ما يلفت النظر في قصيدة المنخغل بن الحارث اليشكري
— وهذا هو اسمه الكامل — ذلك هو ما فيها من ظرف ورقة
وفكاهة ، فهي تنطلق بشخصية ذلك العربي القديم ، يوماء
يوم وغى وطعان ويوم متعة وهو وانطلاق ، اليوم خمر وغداً
أمر — كما يقول امرؤ القيس — هذان الوجهان لعملة الحياة
يمثلان معاً رحلة الوجود بالنسبة لهذا العربي القديم ، حتفه في
شبابه وفروسيته ، ومتعته في نشوته وبجونه بلا حدود .

لكن هذا الظرف وهذه الفكاهة ، تبلورهما القصيدة على
نحو غير مألوف في الشعر العربي القديم . إن الشاعر الفاتك
الجزور ، يقتحم الحِدر على فتاته في يوم لهُو ومتعته ، وهو
يختار للهو ومتعته يوماً مطيراً ، لا يصلح لصيد أو قتال أو
زيارة ، وإنما هو يوم مؤانسة وفراغ بال ، وهو يبادلها حواراً
يشف عن رغبته الجامحة ونزوته العارمة ، فهي تلمس ما يحسمه
من حرور ، أي من حرارة واشتعال ، دليل فحولته
ورجولته ، وتسعد فتاته بهذا الاقتحام وتطرب له وتهش ،
والشاعر يخشى أن يتبادر الى ذهن أن متعته بفتاته هذه
متعة عابرة ، فيعطي لعاطفتها وعلاقتها المشتركة عمقاً في الزمان
حين يؤكد بروح مرحة أنه يحبها وتحبه وأن بعيره أيضاً
يحب ناقتها ، يؤكد لظول أمد الحبة وطول الإلفة بين العاشقين .

ثم يمعن شاعرنا الفاتك الجسور - والذي سنجده له أشباهاً
في شعرنا العربي بعد ذلك - كوضاح اليمن وعمر بن أبي ربيعة
ومسلم بن الوليد (صريع الفواني) وغيرهم - يمعن في نظرفه
أكثر وأكثر ، مصوراً حاله وقد تملكته نشوة الشراب ،
وسرت فيه حميتا الخمر فتخيل نفسه الملك النعمان رب
الخورنق ، وصاحب السرير - أي العرش - بلغة ذلك
الزمان ، فإذا صحا ، وعاد إليه صوابه وجد نفسه كما كان
رب الشوثة والبعر ، لا يملك إلا ما يملكه العربي البسيط
شيء وبعر.. والمقابلة هنا بين الحالين : حال نشوته وتصورات
وحال صحوه وعودته الى الواقع مقابلة طريفة ، صاغها الشاعر
صياغة عذبة ، لا تكلف فيها ولا صنعة ولا تزويق ..

يبقى بعد ذلك أن نشير إلى لغة هذا الشاعر الفارس
الفاتك ، وتراوحها بين الجزالة والجيشان والوقع الأسر في
مستهل قصيدته وهو يتحدث عن شجاعته وفروسيته ومشاركته
للفرسان والأقران ، وبين نعومتها وسهولتها وانسيابها عندما
انتقل الى الحديث عن لهوه وبجونه وشرابه وتخيلاتة ، وكأنه
يعطي لكل وجه من وجهي حياته لغته الشعرية الموائمة في
التعبير ، وإيقاعه الموسيقي المواكب في النفس والوجدان .

ولقد تركت هذه القصيدة - على بساطتها وقصرها وسهولتها
المتنعة - آثاراً عميقة في أشعار كثيرين حاولوا استلهام الروح
المفعم بالحياة لدى المختل ، وقدرته الفذة على التصوير الموسيقي ،

بأبسط الألوان والظلال ، حتى إننا نجد شاعراً حديثاً هو علي
الجارم يقول في إحدى قصائده مخاطباً « بغداد » وكان وقتها
يمثل مجمع اللغة العربية في أحد مهرجانات العلم والأدب :

حتى يكاد يحبُّ نخلك نخلُ أهلي في رشيدٍ

وهو هنا ينظر إلى بيت النخل :

وأحبُّها وتحبُّني ويحبُّ نأقتها بعيري

وقبل الجارم بعصور بعيدة ، موزعة في القدم ، نجد الصورة
الرئيسية أو المشهد الرئيسي الذي تصوّره قصيدة النخل
- مشهد اقتحام الخدر على المحبوبة - متكرراً في شعر
«وضاح اليمن» الذي عاش بعد وفاة النخل بحوالي مائة عام:
وهو يقول :

قالت : ألا تلبجن دارنا	إنّ أبانا رجل غائر
قلت : فلإني طالب غرة	منه وسيفي صارم باتر
قالت : فإن القصر من دوننا	قلت : فلإني فوقه ظاهر
قالت : فإن البحر من دوننا	قلت : فلإني سابع ماهر
قالت : فحوّلي إخوة سبعة	قلت : فلإني غالب قاهر
قالت : فإنّ الله من فوقنا	قلت : فربّي راحم غافر
قالت : لقد أعيّتنا حُبّة	فأت إذا ما هجع السامر
واسقط علينا كسقوط الندى	ليلة لا نأه ولا زاجر

كما نجد المشهد نفسه متكرراً في شعر عمر بن أبي ربيعة ،
وهو يصف اقتحامه خباء محبوبته « نَعْم » وقد أخذ يترقب
مغيب القمر ورواح الرعيان ونوم السمار :

فلما فقدتُ الصوت منهم وأطفئت
مصابيحُ شُبْتُ بالعشاء وأنور
وغاب قنير ، كنت أرجو غيوبه
وروح رعيانٍ ونوم ستمرُ
وخُفْتُ عني الصوتُ ، أقبلت مشية الـ
حباب ، وشخصي خشية القوم أزور^(١)
فحييتُ إذ فاجأها ، فتولت
وكادت بخفوض التحيسة . تجهرُ

وسوف يطالع القارئ النص الكامل لقصيدة عمر بن أبي
ربيعة بين صفحات هذا الكتاب ..

أما الآن فلإلى قصيدة المتخلل اليشكري :

(١) ويرى البيت أيضاً : ركني خشية القوم أزور .

فتاة الخند

شجاعة وكرم :

إن كنت عاذلتي فسيري
نحو العراق ، ولا تحوري ^(١)
لا تسألني عن جُلّ ما
لي ، وانظري كرمي وخيري ^(٢)
وفوارس كأوار حرّ
النار أحلاس الذكور ^(٣)
شدّوا دوابر بيضهم
في كلّ مُحْكَةٍ القتير ^(٤)
واستلّموا ، وتلبّسوا
إنّ التلبّ للمفير ^(٥)

(١) عاذلتي : لاثقي ومعانتي . لا تحوري : لا ترجمي .

(٢) جُلّ مالي : كثرة مالي ومعظمه .

(٣) الأوار : شدة التوهج والاشتعال . أحلاس الذكور : فرسان الحيل الملازمون لظهورها .

(٤) الدوابر : الأواخر . البيض : جمع بيضة الحديد وهي تلبس في الرأس . القتير : مسامير الدروع .

(٥) استلّموا : لبسوا اللامات وهي الدروع . تلبّسوا : أي تحزّموا ، وهي علامة التأهب للإغارة على العدو .

وعلى الجيادِ المضمرا
تِ فوارسٌ مثل الصقورِ^(١)
يخرجن من حلل الغبا
رٍ يحفن بالنعم الكثيرِ^(٢)
أقررتُ عيني من أول
ثك والفوائح بالمبيرِ^(٣)
وإذا الرياح تناوحت
بحوانب البيت الكبيرِ^(٤)
ألفيتني هشّ اليدين
نرٍ ، بمرى قداحي أو شجيري^(٥)

(١) المضمرا : التي ضمرت ، أي هزات من كثرة الرياضة وسرعة الحركة .

(٢) يحفن : يسرعن .

(٣) من أولئك : أي من الفوارس . الفوائح بالمبير : النساء الذكيات الرائعة .

(٤) تناوحت : هت من كل ناحية . الكثير : المشدود إلى الأرض بالحبال .

(٥) ألفيتني : وجدتني . هشّ اليدين : خفيف اليدين . بمرى قداحي : بإجالاته ودورانه . الشجير : الغريب (إذا حل الجذب وجدتني خفيف اليدين كرمًا وجوداً أوزع أقداحي) .

وأحبها وتحبني :

ولقد دخلتُ على الفتا
ةِ الحِدرِ في اليومِ المطيرِ^(١)
الكاعبِ الحسناءِ ترفُ
لُ في الدمقسِ وفي الحريرِ^(٢)
فدفعتهما فتدافعت
مشيَ القطاةِ إلى الغديرِ^(٣)
ولثمتها فتنفستُ
كتنفسِ الطيبيِ الغريرِ^(٤)

ويروى البيت أيضاً :

(وعطفتمها فتعطففت
كتعطف الطيبي الغرير)
فدننت وقالت ، يا منخسلُ
ما يحسبك من حرورِ^(٥)

-
- (١) اليوم المطير : اختاره الشاعر لأنه يوم الموائسة وفراغ البال
لا صيد فيه ولا غارة ولا زيارة .
(٢) الكاعب : التي رداً نديها في النهود ، الدمقس : الحرير الأبيض .
(٣) القطاة : نوع من الطير يشبه الحمام ، وقيل : هو الحمام .
(٤) الغرير : ولد الطيبي وهو صغير .
(٥) الحرور : شدة الحرارة والتوهج .

ما شفاً جسمي غيرُ جسـ
ملكٍ ، فاهدئي عني وسيري^(١)
وأحببهاـــــــــــــــــا وتحبني
ويحببُ نأقتها بميري

خيالات النشوة :

يا ربّ يومٍ للمنفخ
لـ ، قد لها فيه قصير
ولقد شربتُ الخمر بالـ
خيّل الإناثِ والذكورِ
ولقد شربتُ الخمر بالـ
مبدٍ الصحيحِ والأسيرِ
ولقد شربتُ من المدا -
مةٍ بالصغيرِ والكبيرِ^(٢)

(١) ما شفاً جسمي : ما هزله وأضعفه . اهدئي عني : الزمي
الكون عني .

(٢) بالصغير والكبير : بصغير ماله وكبيره . أو بالدوم والدينار .
أو بالقدح الصغير والقدح الكبير .

فاذا انتشيت^١ فإنسي
 رب الخورنق^(١) والسرير^(١)
 وإذا صحت^٢ فإنسي
 رب الشوينة^(٢) والبعير^(٢)
 يا هند^٣ من تميم
 يا هند^(٣) .. للعالي الأسير^(٣)

(١) الخورنق : قصر النعمان قرب النجف في العراق . السرير : يقصد به العرش ، ويروي : « السدير » : وهو قصر آخر في الحيرة بالقرب من الخورنق اتخذ النعمان الأكبر لبعض ملوك المعجم .
 (٢) إذا صحت : إذا ذهبت تشوة السكر . رب الشوينة والبعير : عربي لا يملك شيئاً إلا الشياه والبعير .
 (٣) هند : بنت النعمان بن المنذر بن ماء السماء حاكم الحيرة . العالي : المقيد .

نفس

لعمر بن أبي ربيعة

وهذا فتى قريش المدلل ، وأول شاعر ينبغ من بينها
ويطير ذكره في القبائل ، وإذا بلغة الضاد على شفتيه تكلسي
رداءها القُرْشيّ ، وطابعها العربي الأصيل ، في رقّة تفتن
القلوب وتستهي الألباب ، وديباجة جزلة ولكنها ناعمة ،
متينة السبك غير أنها تفيض سلاسة وليونة ..

عند عمر بن أبي ربيعة ، ينعطف الشعر العربي ، ويتخذ
سمتاً خاصاً ومذاقاً خاصاً . هنا ، للمرة الأولى في تاريخ هذا
الشعر ، يفاجئنا شاعر مطبوع ، يدور شعره كله حول موضوع
واحد هو الغزل ، شاعر لا يمدح ولا يهجو شأن غيره من
الشعراء ، إنه فقط يحبّ ، ويعلن عن هذا الحب في شعره ،
ديوان شعره كله ديوان حب ، والقصيدة الواحدة من قصائده
قصيدة حب كاملة . كان الغزل في شعر الشعراء - قبل عمر -
شيئاً يتخفى أو يبين داخل غيره من أغراض القصيد ، وهو

في الأكثر الأعم مدخلٌ يُفضي إلى الغرض الرئيسي من القصيدة ، أو هو حُسنُ استهلالِ يصل من خلاله الشاعر إلى موضوعه الجوهرى مدحاً أو فخرأ أو هجاء أو تأملاً .

وشاعرنا - الذي ولد ومات بالحجاز (من ٦٤٤ إلى ٧١٢ ميلادية) وعاش بمكة ، وكان يتردد على المدينة واليمن والشام والعراق - قد أتبع له من شبابه وجماله وفتوته وشاعريته وعراقة أصله وراثته فضلاً عن كونه وحيد أمه ، ما يشر أمامه سبيل العيش اللاهى العايش ، وهيتاً له أفانين المتعة واللهو ، يتنقل من غاية إلى غاية ، ومن التشبيب بحسناء إلى الولع بأخرى ، ومن تلبيح خطا قرشية إلى التفزل بأخرى غير قرشية ، وما أكثر ما كانت مواسم الحج ، بالنسبة له ، مواسم للحب واللذة والدوران وراء اللاتي قدمن للحج ، من بقاع الوطن للإسلامي ، يتعرض لهن ، ويشبب بهن ، ويلسج حولهن الأقاصيص في شعره ، ويحاورهن ، ويترقب خروجهن للطواف بحرمات ، فيقمن من فؤاده موقعاً يلك عليه لبه ، وما يلبث شعره أن يسير ويروى ويتناقله الركبان والسمّار . وبعض هؤلاء اللاتي قدمن للحج قد بلغتهن قصص عمر وأفاعيله وأشعاره ، ووددن لو كان لهن حظ من شهرة ينلنها بفضل أبيات قليلة منه . إن التفات عمر إليهن - دون غيرهن - حظوة وتكريم ، وذكرهن في شعره مجد وأيّ مجد ، يتهن به على الصواحب والأتراب .

وفى هذا شأنه ، لا يمكن أن يعلق فؤاده بواحدة من
النساء يصدق لها الحب والمهد ، كلاً ، وإنما هو فؤاد قلق ،
طائر ، متنقل ، سريع الزهد والعزوف ، دائم البحث والتنقيب
والتجول ، لذلك فلن يفاجئنا أن نطالع في شعره أسماء شتى
لمحوبات توقف عندهن بعض الوقت ثم واصل تطوافه وتجوّاله .
ليس هناك إذن اسم واحد ، لمحوبة واحدة ، يكن لها كل
الحب وكل الاخلاص ، وليست هناك معالم واضحة لهذا الحشد
من الحسان ، إنه دائماً يصفهن من الخارج ، القوام والوجه
والعينين والفم والمشية والشعر ولا يفوته أيضاً أن يصف اللون
والصوت ، هو دائماً وصف من الخارج قد تتشابه فيه الموصفات
والمقاييس ، لكننا لن نجد من خلاله شخصاً حياً ، لها تفردها
وتوهجها الخاص ، لها إنسانيتها المتميزة . وعمر في هذا شأنه
شأن غيره من الشعراء العرب القدماء ، وإن كان ينفرد من
بينهم بما أوتي من نفاذ إلى خوالج نفس المرأة ، وقدرة على
تصوير عواطفها وأهوائها ونزواتها ، وتقلبها ، وإحاطة
بحركاتها وإشاراتها ولفقاتها وأساليب حديثها وطرق تعبيرها .
مما ينمّ عنه شعره الذي وصل إلينا . هذا الشعر الذي تأثر
بازدهار الغناء في عصره ، فجاء على صورة مقطوعات أكثر منه
على صورة قصائد ، وفي أوزان خفيفة أو مجزوءة ، والفاظ
سهلة واضحة حلوة الجرس والرنين .

وفي شعر عمر بن أبي ربيعة ، نطالعنا ، ولأول مرة في

شعرنا العربي ، القدرة على القصّ وكتابة شعر الغزل القصصي ،
فالكثير من قصائده تجارب عاطفية في إطار من القصة ، يتخللها
غالباً حوار بين شخصيها وأبطالها ، وهو مستوى من التعبير
الشعري القصصي تفوّق به عمر كثيراً على أستاذه الأول في
هذا الفن - امرئ القيس - كما تفوّق بقدرته الخارقة على فهم
نفسية المرأة وتمثّل حالاتها المختلفة ، والقدرة على خلق الحوار
الطبيعي النابض بالحياة والجمال والطرافة .

هذا الشاعر المترف الملول ، الكثير التقلب والتنقل من
واحدة إلى أخرى ، هو أيضاً شاعرٌ معجب بنفسه بكل
الإعجاب ، شاعر نرجسيّ يمتليء شعره بذكر تهافت الحسان
عليه ، وإعجابهن به وبشعره ، ومن هنا نجد في قصائده لوناً
من التشبيب بنفسه ، والحديث عن طلب النساء له وسعيهن
في إثمه :

ثم اسبطرت تشد في أثري

تسأل أهل الطواف عن عُمر

إنه المطلوب وليس الطالب ، وهو المطارد وليس المطارد ،
وهو من تتعرض له النسوة في الطريق بالغمز والإشارة ، وهو
من يصفنه بالقمر ، ويهين له سبل اللقاء في الخلوات ، ويدبرن
بينهن وبينه رُسلًا يحملن إليه رسائل الوجد والشوق والهيام :

هل من رسول يكّي حوائجنا

بحاجة تشتهي إلى عُمر ؟

وهنّ في قصائده يتحدثن عنه حديث من تيمن الحب
وبرّح بن الهيام ، وما أسعدهن به حين يطلع عليهن ممتطياً
جواده الأغرّ وهنّ منفسات في الحديث عنه والتلذذ بذكره :

قلن : يسترطينها : مُنِيتُنَا
لو أتاها اليومَ في مرّرٍ عمرٍ !
بينما يذكرني أبصرني
دون قيد الميلِ ، يعدو بي الأغر

قالت الكبرى : أتعرفن الفقى ؟
قالت الوسطى : نعم ، هذا عمر

قالت الصغرى وقد تيمّنتها :
قد عرفناه ، وهل يخفى القمر !

فأيّ زهو بالنفس وأي افتتان بالذات ؟

* * *

والقصيدة التي نطالعها الآن من شعر عمر بن أبي ربيعة
تحمل كل خصائص شعره وسمات شاعريته ، فضلاً عن أنها
أطول قصائده تنقّساً وأشهرها بين الرواة ودارسي الأدب ،
ومتذوقي شعرنا العربي .

القصيدة تدور حول واحدة من محبوباته هي « نعم » ،
ويستهلها بالحديث عن شمل غير مكتمل وحبلٍ غير موصول ،

وحنين إلى صاحبتة هذه التي حالت الحوائل بينه وبينها ، وفي مقدمة هذه الحوائل أقاربُها الذين يقطعون الطريق عليه ويتنمرون له . ثم يصل بنسا إلى جوهر القصيدة حين يصف - في مهارة واقتدار - ليلة « ذي دُوران » حين أخذ يترقب نوم المحيطين بنُعم ، حتى إذا هجموا وأطفئت المصابيح ونام السَّار فاجأها بالزيارة ، ثم هو يصف وقع المفاجأة عليها ، وما دار بينها من حوار وهي متوجسة خائفة من الفضيحة لو أحس بها القوم - وينتهي الحوار بقولها لعمر :

فأنت - أبا الخطاب - غير مدافع
عليّ أميرٌ ، ما مكثت ، 'مؤمّر'

وبييت معها عمر ، ويلدّ له الوصال ، ويا له من ملهى ومجلس لم يكدره مكدر ، وتغضي الساعات وهما في نشوة اللقاء ، حتى يروعها صوت المذاذي يؤذّن للرحيل وقد أوشك الليل على الانقضاء . وهنا تبلغ القصة قمتها وتستحكم عقدتها ، لقد استيقظ القوم وتنبهوا ، فكيف لعمر أن يغادر الحي دون أن يحسوا به ، وتدبّر له صاحبتة المخرج ، تفضي لأختيها بالأمر لعلها تعينان عليه ، وتعطيه الصغرى رداءها فيرتديه ، ويمشي بينهن حتى يغادر ، فلا السر يفشو ولا الفضيحة تقع ، ولا ينسى وهو يختم قصيدته بمد أن نجا بتدبير الأختين ، لا ينسى أن يغبط أهل صاحبتة برائحتها الطيبة ومذاق فمها المسكر .

وكأنه يريد أن يقول إن أثر هذه الرائحة المعطرة وهذه الأعطاف الناعمة ما يزال عالماً بذاكرته لم يفارقه بعد .

يبقى بعد هذا أن نشير إلى الصنعة الشعرية المتقنة التي تنبض بها هذه اللوحة الشعرية الفاتنة من آثار عمر بن أبي ربيعة وإلى القدرة الفذة على التصوير والتجسيد وتوزيع الألوان والظلال ، خاصة وهو يرسم المجال النفسي لشخصه وأبطاله ، وإلى الإيقاع الموسيقي المواكب لحركة النفس هدوءاً واندفاعاً ، قلقاً واطمئناناً ، وإلى التفنن في تصوير الإطار الطبيعي للمشهد وقد غاب القمر وهجع السمار وواتت الفرصة ..

وقصيدة « نعم » بعد هذا كله شاهد صدق على مفاخرة شاعر فاتك ، معجب بنفسه ، مفتون بذاته ، وبحظوته لدى النساء ، واقتداره على الوصول إليهن ، شاعر استطاع أن يخط في مسيرة الشعر العربي عامة ، وشعر الغزل والحب خاصة ، أولاً فريداً غير متكرر ، تنتمي جذوره البعيدة إلى امرئ القيس وتنتهي فروعه القريبة إلى نزار قباني .

يقول عمر بن أبي ربيعة :

« نَعَمْ »

استهلال وشوق :

أمن آل 'نعم' أذت غادر فبكر'
غداة غدير ، أم رائح' فهجر^(١)

لحاجة نفس لم تقل في جوابها
فتبلغ عذراً والمقالة 'تعدّر'

تهم إلى 'نعم' ، فلا الشغل جامع'
ولا الحبل موصول' ، ولا القلب مقصر

ولا قرب' نعيم إن دنت لك نافع
ولا نأيا يسلي ، ولا أنت تصبر'

وأخرى أنت من دون 'نعم' ، ومثلها
نهي ذو النهي لو ترعوي أو تفكر^(٢)

إذا زرت' 'نعماً' ، لم يزل ذو قرابة
لها ، حلتها لاقية ، يتنمر'

(١) غادر فبكر : أي سائر في الصباح الباكر قبل طلوع الشمس .
الرائح : السائر في الرواح وهو وقت العشي . المهجر : السائر في الهجرة
وهي الحر الشديد .

(٢) النهي : العقل . ترعوي : ترجع عن الضلال .

عزیز علیہ أن أَلُمُّ ببيتہا
 'یسر' لی الشعناء، والبغض 'مظہر' (۱)
 أَلِکْنِ إلیہا بالسلام، فإنه
 'یشر' إلامی بہا و'ینکتر' (۲)
 بآیة ما قالت غداةَ لقیتهما
 «مدفع أکنان» : أهذا المشہر؟ (۳)
 أشارت بیدراہا، وقالت لأختها :
 أهذا المغيری الذي کان یذكر؟ (۴)
 أهذا الذي أطريتِ نعمًا، فلم أکن
 وعیشیک، أنساء إلی يوم أقبر' (۵)
 فقالت : نعم، لا شک غیر لونه
 'سری اللیل یحیی نصہ، والتهجر' (۶)

-
- (۱) الشعناء : الکراهیة والبغضاء .
 (۲) أَلِکْنِ : أي أحل رسالتی . یشر : یداع .
 (۳) «مدفع أکنان» : اسم موضع .
 (۴) المدری : حدیة یحک بہا الرأس . المغيری : أي عمر . نسبة
 إلی المغيرة جد أبيہ .
 (۵) أطريتِ نعمًا : أحسنت وصفاً .
 (۶) یحیی نصہ : یحیی مروره وانتضاءه . التهجر : السیر فی المأجرة
 وهي الحر الشدید .

لئن كان إياه ، لقد حال بعدنا
عن العهد ، والإنسان قد يتغير^(١)

صورة وصفية للشاعر:

رأتُ رجلاً أما إذا الشمسُ عارضت
فيضحي ، وأما بالعشي فيخسر^(٢)
أخا سفره جوابَ أرضٍ ، تقادفتُ
به فلوات^(٣) ، فهو أشعثُ أغبر^(٤)
قليلًا على ظهر المطيَّةِ ظلُّه
سوى ما نفى عنه الرداءُ المُحبر^(٥)

وصورة لحال الحبيبة :

وأعجبها من عيشها ظلُّ غرفة
وريتانُ ملتفُّ الحداثقِ أخضر^(٦)

-
- (١) حال : تغير .
(٢) عارضت : أي قابلت وواجهت . يضحى : يتعرض للشمس .
يخسر : يشتد به البرد .
(٣) الفلوات : جمع فلاة وهي الصحراء .
(٤) الرداء المبر : المزين والمطرز .

ووالِ كفاها كل شيء يُهْمُهَا
فليست لشيء آخرَ الليلَ تسهر^(١)

وصف المغامرة الليلية :

وليلة « ذي دوران » جشمتني السرى
وقد يحشم الهولَ المحبُّ المفرَّ^(٢)
فبتُ رقيباً للرفاق على شفا
أحاذر منهم من يطوف وأنظر^(٣)
إليهم ، متى يستمكن النوم منهمو
ولي مجلسٌ لولا اللبانة أوعر^(٤)
وباتت قلوصي بالعراء ورَحْلُهَا
لطارقٍ ليلٍ ، أو لمن جاء ، مُعمور^(٥)
وبتُ أناجي النفس : أين خباؤها ؟
وكيف لما آتني من الأمر مصدر ؟

(١) الوالي : الزوج أو القيم . كفاها كل شيء : أي كفل لها كل احتياجاتها ورغائبها .

(٢) « ذي دوران » : اسم مريض . جشمتني : أي كلفتني . المفرَّ : الذي يمر من نفسه للهلاك .

(٣) على شفا : على حذر وتربص .

(٤) لولا اللبانة : لولا الحاجة والموى .

(٥) قلوصي : ناقتي . معمور : أي ظاهر واضح .

فدلّ عليها القلب ربّاً عرفتها
 لها ، وهوى النفس الذي كاد يظهر^(١)
 فلما فقدت الصوت منهم ، وأطفأت
 مصابيح^٢ شئت في العشاء وأنور^٣
 وغاب قير^٤ كنت أرجو غيوبة
 وروح رعيان^٥ ونوم سمر^٦
 ونفضت عني النوم ، أقبلت مشية الـ
 حجاب^٧ وركني خشية القوم أزور^(٢)
 فحييت^٨ إذ فاجأتها ، فتولّيت
 وكادت بمخفوض التحية تجهر^(٣)
 وقالت وعضت بالبنان : فضحتني !
 وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر^٩
 أريتك^{١٠} ، إذ هنا عليك ، ألم تخف ؟
 وقيت^{١١} ، وحولي من عدوك حضّر^(٤)

(١) الريتا : الرائحة الذكية .

(٢) مشية الحجاب : أي كما تقشي الحية ، وركني أزور : أي وجسمي
 مائل منعطف خشية أن يراني أحد .

(٣) تولّيت : اشتد بها الوجد .

(٤) أريتك : أي قل لي وأخبرني ، أصلها أرايتك . 'حضّر' : أي
 حضرون .

فوافقه ما أدري أتسجّل حاجة
سرّتك بك ، أم قد نام من كنت تحذّر ؟

فقلت لها : بل قادني الشوق والهوى
إليك ، وما عين من الناس تنظر

فقلت وقد لانت وأفرخ روعها :
كلاك بحفظ ربك المتكبر^(١)

فأنت ، أبا الخطاب ، غير مدافع
عليّ أمير ، ما مكثت ، مؤتمر^(٢)

فبت قرير العين ، أعطيت حاجتي
أقبل فاما في الخلاء فأكثر

فيا لك من ليل تقاصر طوك
وما كان لي قبل ذلك يقصر

ويا لك من ملهى هناك ، ومجلس
لنا ، لم يكدره علينا مكدر

(١) أفرخ روعها : هدأت نفسها . كلاك : رعاك وحفظك .

(٢) أبو الخطاب : كنية عمر بن أبي ربيعة . غير مدافع : غير منازع .
مؤمر : أي لك الأمر والسيادة عليّ .

يَجْ ذَكِي الْمَسْكُ مِنْهَا مَفْلَجٌ
 رَفِيقُ الْخَوَاشِي ذُو غُرُوبٍ مُؤَشِّرٌ^(١)
 تَرَاهُ إِذَا تَفَتَّرَ عَنْهُ ، كَأَنَّهُ
 حَصَى بَرَدٍ أَوْ أَقْحَوَانَ^(٢) مُنَوَّرٌ^(٣)
 وَتَرَوْهُ بِعَيْنَيْهَا إِلَى ، كَمَا رَنَا
 إِلَى رَبِّهِ وَسَطَ الْحِمْلَةِ جُوذُرٌ^(٤)
 فَلَمَّا تَقَضَّى اللَّيْلُ إِلَّا أَقْلَهُ
 وَكَادَتْ قَوَالِي نَجْمُهُ تَتَغَوَّرُ^(٥)
 أَشَارَتْ بِأَنَّ الْحَيَّ قَدْ حَانَ مِنْهُمْ
 هَبُوبٌ^(٦) ، وَلَكِنْ مَوْعِدٌ لَكَ «عَزُورٌ»^(٧)
 فَا رَاعِنِي إِلَّا مَنَادٍ : « تَرَحَّلُوا »
 وَقَدْ لَاحَ مَفْتُوقٌ^(٨) مِنَ الصَّبْحِ أَشْقَرُ^(٩)

(١) يَجْ ذَكِي الْمَسْكُ ، أَي يَلْدَفُ بِالرَّائِحَةِ الطَّيِّبَةِ . مَفْلَجٌ : أَي ثَغْرِ
 مُتَبَاعِدِ الْأَسْتَانَ ، وَكَانَتْ الْعَرَبُ تَعُدُّ هَذَا مِنْ جَمَالِ الْمَرْأَةِ . ذُو غُرُوبٍ :
 أَي مَمْلُوءٌ بِالرَّحِيقِ وَالرِّضَابِ . مُؤَشِّرٌ : أَي أَسَانَةٌ مَحْرَزَةٌ خَلْقَةٌ أَوْ صُنْعَةٌ .

(٢) تَفَتَّرَ عَنْهُ : تَبَيَّنَ .

(٣) الرَّبْرَبُ : الْقَطِيعُ مِنْ بَقَرِ الْوَحْشِ . الْجُوذُرُ : وَلَدُ الْبَقَرَةِ الْوَحْشِيَّةِ
 كَانَتْ الْعَرَبُ تُشَبِّهُ النِّسَاءَ بِهِ لِحَالِ عَيْنَيْهِ .

(٤) قَوَالِي نَجْمُهُ : أَي نَجْمُهُ التَّبْقِيَّةُ . تَتَغَوَّرُ : تَغْيِبُ .

(٥) عَزُورٌ : اسْمُ جَبَلٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ .

(٦) مَفْتُوقٌ : أَي مَنَشَقٌ ، وَالْقَصُودُ نَوْرُ الصَّبَاحِ .

فلما رأت من قد تنبئه منهم
وأيقاظهم ، قالت : أشرُ كيف تأمرُ !
فقلت : أبادهم ، فلما أفتوهم
ولما ينال السيف ثاراً فيثأرُ (١)

تدبير الخلدس :

فقلت : أتحيقاً لما قال كاشحُ
علينا ، وتصديقاً لما كان 'يؤثر' ؟ (٢)
فإن كان ما لا بدّ منه ، فغيره
من الأمر أدنى للخفاء وأسرُّ
أقصُّ على أخوتي بدءَ حديثنا
وما لي من أن تعلمنا متأخرُ
لعلّها أن تطلبنا لك مخرجاً
وأن ترحبنا صدراً بما كنتُ أحصرُ (٣)
فقامت كئيباً ليس في وجهها دمٌ
من الحزن تُذري عبّرةً تتحدّرُ (٤)

(١) أبادهم : أبادر وأتصدى لهم .

(٢) الكاشح : العدو المبيض . يؤر : يروي ويقال .

(٣) أحصر : أضيق به .

(٤) تُذري عبّرة : تسكب دمعاً .

فقامت إليها 'حرثان' عليها
 كساءان من خزّ : دمعس وأخضر
 فقالت لأختيها : « أعينا على فتى
 أتى زائراً ، والأمر للأمر يقدر »
 فأقبلتا ، فارتاعتا ، ثم قالتا :
 أقلتي عليك اللوم ، فالخطب أسر
 فقالت لها الصغرى : سأعطيه مطرفي
 ودرعي وهذا البرد إن كان يحذر^(١)
 يقوم فيمشي بيننا 'متنكراً'
 فلا سرّاً يفشو ولا هو يظهر
 فكان يجني دون من كنت أتقي
 ثلاث شخوص : كاعبان ومُعصر^(٢)
 فلما أجزنا ساحة الحي قلن لي :
 ألم تتق الأعداء والليل مقرر ؟

(١) المطرف : وداء من خزّ . الدرع : قيص المرأة . السبرد : ثوب مخطط .

(٢) جني : ترسي . الكاعبان : مثني الكاعب ، وهي الفتاة في أول البلوغ . المعصر : المرأة الناضجة .

وقلن : أهذا دأبك الدهر سادراً
أما تستحي أم ترعوي أم تفكر^(١) ؟
إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا
لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظر^(٢)

التفاتة وتذكر :

فآخر عهد لي بها حين أعرضت
ولاح لها خد نقي ومحجر
سوى أنني قد قلت يا نعم ، قولة
لها ، والعناق الأرحبيات تزجر^(٣)
هنيئاً لأهل العامرية نشرها الـ
لذيذ وريتها التي أتذكر^(٤)

-
- (١) دأبك : عادتك . سادراً : منصرفاً إلى الغواية غير مبال .
(٢) امنح طرف عينيك غيرنا : أي انظر إلى سوانا وغيرنا .
(٣) العناق الأرحبيات : النياق الكريمة . تزجر : تساق وتدفع .
(٤) اللشر : ريح فم المرأة ، الريتا : الرائحة الذكية .

[المؤسسة]

لمجنون ليلى (قيس بن الملوّح)

لا يُذكر الحبُّ في شعرنا العربي القديم إلا ويذكر معه
مجنون ليلى : هذا الاسمُ الأسطوري ، الذي صارَ عدلاً على نوع
من الحب هو الحب العذري . وصار مثلاً للمثاق الصادق الذي
صرع صاحبه ، وكان بذلك موضع أحاديث معاصريه ومن جاء
بعدهم حتى يومنا هذا .

ويتفق المؤرخون جميعاً على أن المجنون عاش في عصر
الدولة الأموية ، واستمرت حياته حتى عام سبعين من الهجرة ،
وأن اسمه الكامل هو قيس بن الملوّح من بني عامر بن صعصعة ،
وأن ليلى التي أحبها وهام بها وقضى بسبب حبها هي ليلى بنت
مهدي بن سعد بن كعب بن ربيعة .. وأن كليهما نشأ في بيت
ذي ثراء وافر وخير كثير ..

— ولكن ما هي — أولاً — حكاية هذا الحب العذري ؟
في رحاب الصحراء العربية وتحت خيامها ، وفي ظلال

كشباتها ومنعطفات أوديتها ، غمسا وترعرع حباً الفروسية
الأصيل .. ولقد كانت البيئة العربية مهداً لحب الفروسية
منذ الجاهلية ، فالبادية أيقظت في وجدان الشاعر العربي
الحديث عن الحب الذي ينشر على الحياة الرتيبة فيها جواً من
المرح والسرور وهو حبّ أهل البادية الذي يملأ عليهم فراغ
الحياة من حولهم ويبعث فيهم من نبث الشعور ما به يعيشون
على ذكرى هذه العاطفة في النفس ، ويبكون آثارها في أطلال
ديار الحبيب .

وحياة البادية بما كانت تدفع إليه من شظفٍ وجهد ، وبما
كانت تستلزمه من تعاون قبلي ، ساعدت على تكوين أخلاق
وتقاليد تمكنت من روح العربي وسرت في نفسه وهي أخلاق
الفروسية وتقاليدها : من البطولة في الحرب ، وحماية الجار ،
والوفاء بالعهد .

فالشاعر العربي منذ الجاهلية فارس من قوم فرسان ،
والفارس يكتمل فيه جانب البأس والشدة في مواطن الهول
يجانب الرقة والدمائة خضوعاً لسلطان العاطفة - ولهذا ،
كان الشاعر العربي لا يبكي في شعره أمام أخطر الأهوال ،
ويتعاشى أن يمر بباله هذا البكاء خوفاً من أن تضيق مكانته في
قومه ، ولكنه يبكي في 'سِرِّ وطواعية إرضاء' لعاطفته
واستجابة لها ، بل إنه يظهر أمام حبيبته في صورة الخاضع
الذليل لسلطان حبه ، وإن كان الفارس القوي الذي يحميها
ويخاطر في سبيلها .

ولم يلبث عامل البيئة والقبيلة أن تضافر مع عوامل أخرى كثيرة في خلق نوع جديد من الحب في حياة العربي ، يتجاوز كثيراً حب الفروسية وإن كان يتفق معه في صدق العاطفة ، ألا وهو الحب العذري ، وفيه يمتزج صدق العاطفة بصدق العقيدة .

نشأ هذا النوع الجديد من الحب بعد ظهور الإسلام ، واتضحت سماته في عهد الأمويين ، بعد أن تغير الوضع القديم للجزيرة العربية في ذلك العهد ، فانتقلت عاصمة الدولة الجديدة إلى دمشق ، وقوي النشاط السياسي في العراق ، وبُعد الحجاز عن المشاركة في شئون الدولة ، وبخاصة بعد فشل ثورة عبد الله ابن الزبير . وانجبه شعراء الحجاز اتجاهين مختلفين : الأول إغراق في اللهو ، في حياة مرحلة غنية ، بما أفاء عليهم الإسلام من مغنم الفتوح ، وخير من يمثل هذا الاتجاه عمر بن أبي ربيعة وأضرابه ، وأكثرهم من سكان المدن .

أما الاتجاه الثاني فكان إلى التعبير عن الغزل العفّ ، ويغلب على سكان بادية الحجاز ، لتمكّن التقاليد العربية منهم ، وقوة سلطان المحافظة الخلقية بينهم ، والمحافظة تغلب دائماً على سكان القرى والبوادي - ويضعف سلطانها في المدن والعواصم . لذلك نما الغزل العذري في أول نشأته في بادية الحجاز ونجد ، وكان بمثابة ردّ فعلٍ للغزل اللامي في المدن ، فوَلع شعراء البادية بتصوير عاطفتهم في ثوب جديد عفّ ، يرضى

عنه الخلق ، ويفرق بين مطالب الجسم والروح معاً .

* * *

ها هو ذا قيس بن الملوّح ، في مقتبل شبابه ، الفق
الغيور ، المتمدّ بنفسه ، ينشد حباً خالصاً له ، حتى إذا علق
قلبه بليلى ، وأقاه الحب الذي كان يتطلع إليه ، حباً جارفاً
قوي عارماً ، يصفه هو بقوله :

نهارى نهارُ الناسِ ، حتى إذا بدا
ليَ الليلُ هزّني إليكِ المضاجعُ
أقضى نهارى بالحديثِ ، وباللّنى
ويجمّني والهمُ بالليلِ جامعُ
لقد ثبتتُ في القلبِ منك حبةٌ
كما ثبتت في الراحتين الأصابعُ (١)

ويغلب قيساً شعوره العنيف بحب ليلى ، فيُعبّر عن حبه
لها وهيامه بها في شعرٍ حلوٍ متدفق ، ولسوء حظه وحظ
ليلى ، أن التقاليد العربية الجاهلية - التي لم يكن قضى عليها
الإسلام - كانت تحرم على من يشبب بفثاة أن يتزوج منها ،
لأن التشبيب والفرل الصريح مظنة صلة بها قبل الزواج ،
ومبحث ريبة في أن الزواج لم يتم بينها إلا سترّاً للعار .

(١) من الطريف أن هذه الأبيات نفسها ينسبها الرواة إلى مجنون آخر
بالحب هو قيس لبنى ١ ونجدتها في قصيدته داخل هذا الكتاب .

وتحرمُ ليلي على قيس وتُجبر على الزواج من غيره ، ولا
يحتمل قيس وقع الكارثة ، فيهم على وجهه ، ويختبل عقله ،
وتدركه المنية وهو على هذه الحال .. شاردأ ذاهل القلب فيما
يشبه الجنون .

* * *

وقيس في شعره عن ليلي - وما أكثره - مؤمنٌ بأنه
ضحية قدر لا سبيل إلى الإفلات منه ، وأنه في معاناته لهذا
الحب العنيف لا يتطلع إلى مشوبة كما أن الحب في إدراكه له
صفة الخلود . فهو باقٍ بعد الموت وإلى يوم الحشر ، ويصاحب
الحب العذري في الدار الآخرة ، ولذا فهو يتمنى الحشر لأنه
السبيل للقاء من يحب .

ومن بين ديوان « مجنون ليلي » تستوقفنا قصيدته المسماة
« المؤنسة » ليس لأنها كما تقول مصادر شعره أشهر قصائده
فحسب ، ولا لأنها أطول قصيدة أنشدها وواظب عليها ولا
لأنها - كما يقولون - كانت أقرب قصائده إلى قلبه ، لا يخلو
بنفسه إلا وأنشدها ، ومن هنا كانت تسميتها بالمؤنسة لكثرة
ما آنت المجنون بترديده لها وإنشاده أبياتها مجتمعة أو
متفرقة ، ليس لكل هذه الأسباب نتخير قصيدة المؤنسة من
ديوان المجنون ، ولكن لأنها نموذج رفيع للشعر العذري ،
الذي عبّر لدى أعلامه الكبار : جميل بثينة وكثير عزة
ونصيب وقيس بن ذريح - الذي يعرف باسم مجنون لبنى -

وابن الدأمنة وأبي صخر الهذلي وعروة بن حزام ، عبّر عن عاطفتهم المشبوبة التي لا تشتطع إلى 'متع حسية' ، فقد كانوا يسمون بها 'سمواً تجلى في اعتزازهم بها والتضحية في سبيل الإبقاء عليها بما يستطيعون بذله من جهد وآلام ومعاناة حرمان بدافع الزهد في المحرمات وتقوى الله . لقد دفعهم المحرمات إلى التسامي ، ولا يتاح مثل هذا التسامي إلا للصفوة التي تؤمن بقيم روحية وخلقية تبلور بها عاطفتها ، فالحب العذري حبٌ عَفٌّ لأنه حب حرّم المتعة الجسدية ، وهو عاطفة صادقة لأنه يدوم ويستمر ويبقى على الرغم من الحرمان .. ثم هو بعد ذلك حب يتسامى فيه صاحبه ، لأنه يحرص على القيم الإنسانية والمثل العليا ، ولا يقف عند مجرد الحسرة والندم على الحرمان ، من متع الحب ووصال الحبيب .

في ضوء هذه السطور نستطيع أن نتأمل قصيدة المؤنسة ، رائعة مجنون ليلى ، باعتبارها نموذجاً صادق التعبير والتصوير لحقيقة هذا الحب العذري ، ولعمق مكابدة العاشق العذري وتساميه بعاطفته المشبوبة وشموه الصادق ووجدّه المُبْرَح ، كما نستطيع أن نطالع من خلال أبياتها نسيجاً شعرياً محكماً ، غاية في الرقة والعذوبة ، تغمره روح بدوية أصيلة تكسبه صدقاً ورسانة ، وبُعداً عن التكلف وخُلُوعاً من الصنعة ، نسيجاً شعرياً يزخر بصدق العاطفة وروعة التصوير وحرارة الوجد والهيام .. لا يملك قارئه إلا أن يتعاطف معه ويتأثر بما يحمله من لوعةٍ وحنينٍ وشجنٍ وأسى .

استهلال وتذكر :

تذكرتُ ليلي ، والسنين الخواليها
وأيام لا تخشى على اللهو ناهيا
ويوم كظلّ الرمح ، قصّرتُ ظله
بليلى ، فلهاني ، وما كنت ناسيا
« بتمدين » لاحت نارُ ليلي ، وصُعبتي
« بذات الغضى » تزجي المطي النواجيا (١)
فقال بصير القوم ألهت كوكبا
بدا في سواد الليل فرداً عانيا
فقلت له : بل نار ليلي توقدت
« بعليا » ، تأسى ضوءها ، فبدا ليا
فليت ركاب القوم لم تقطع الغضى
وليت « الغضى » ماشى الركاب لباليا
فيا ليل كم من حاجة لي مهمة
إذا جئتكم بالليل لم أدر ما هيا
خليلي إن لا تبكياني ألتمس
خليلا إذا أنزفت دمي بكى ليا

(١) قلين وذات الغضى : اسمان لوضعتين . المطي النواجي : جمع ناجية ، وهي الذوق السريعة تنجو بن ركبها .

فما أشرف الأيفاع إلا صباية*
ولا أنشد الأشعار إلا تداويا^(١)
وقد يجمعُ الله الشتيتين بعدما
يظنون أن كل الظن* أن لا تلاقيا^(٢)

سرّ المأساة :

لحى الله أقواماً يقولون إننا
وجدنا طوالَ الدهر للحبّ شافيا^(٣)
خليليّ ، لا والله ، لا أملكُ الذي
قضى الله في ليلى ، ولا ما قضى ليا
قضاماً لغيري ، وابتلاني بحبها
فهلّا بشيء غير ليلى ابتلاني
وخبرْتُني أن تيماء ، منزلٌ
للليلى إذا ما السيف ألقى المراسيا^(٤)

(١) الأيفاع : جمع يقع وبفاع: كلُّ ما ارتفع من الأرض (التلال المشرقة) .

(٢) الشيتان : اللذان ابتعد كل منهما عن صاحبه وتفرق بهما الشمل.

(٣) لحى الله : قبح الله ولعن . طوال الدهر : طول الدهر .

(٤) تيماء : اسم موضع .

فهذي شهور الصيف عنتا قد انقضت
 فما للنوى ترمي بليلى المراميا (١)
 فيا ربّ سوّ الحب بيني وبينها
 يكون كفافاً لا عليّ ولا ليا
 فما طلع النجم الذي يتهدى به
 ولا الصبح إلا هيجا ذكرها ليا
 ولا سرّت ميلاً من دمشق ، ولا بدا
 « سهيل » لأهل الشام إلا بدا ليا (٢)
 ولا « مميت » عندي لها من كميّة
 من الناس إلا بلّ دمي ردائيا
 ولا هبت الريح الجنوب لأرضها
 من الليل إلا بتّ للريح حانيا
 فإن تمنعوا ليلي وتحموا بلادها
 عليّ ، فلن تحموا عليّ القوافيا (٣)

(١) النوى : البعاد .

(٢) سهيل : نجم بيني ، طلوعه على بلاد العرب في أواخر القيظ .

(٣) تحموا بلادها عليّ : تمنعوا بلادها عليّ . فلن تحموا عليّ القوافيا :
 لن تستطيعوا منعي من التفتي بها في شعري .

شهادة عند الله :

فأشهدُ عند الله أني أحبها
فهذا لها عندي ، فما عندها لي
قضى الله بالمعروف منها لغيرنا
وبالشوق مني والغرام قضى لي
وإن الذي أملت يا أم مالك
أشاب فويدي واستهام فؤاديا^(١)
أعدُّ الليالي ليلة بعد ليلة
وقد عشتُ دهرًا لا أعد الليالي
وأخرج من بين البيوت لعلني
أحدث عنك النفس بالليل خاليا
أراني إذا صليت يمت نحوها
بوجهي ، وإن كان المصلي ورائيا
وما بي إشراك ولكن حبها
وعظُمَ الجوى ، أعيى الطبيب مداويا^(٢)

(١) أم مالك : كنية « ليلي » . فويدي : الفريد تصغير الفرد وهو
معظم شعر الرأس .

(٢) عظم الجوى : شدة الوجد والهيام .

أعلى درجات الحب :

أحب من الأسماء ما وافق اسمها
أو اشبهه ، أو كان منه مدانياً ^(١)
خليلياً « ليلي » أكبر « الحاج » والمنى
فمن لي بليلى ، أو فمن ذا لها بيا ^(٢)
لعمري لقد أبكيتني يا حمامة الد
حقيق وأبكيت العيون البواكيا ^(٣)
خليلياً ما أرجو من العيش ، بعدما
أرى حاجتي تشرى ولا تشتري ليا ^(٤)
وتُجرم ليلي ثم تزعم أنني
سلوت ، ولا يخفى على الناس ما بيا
فلم أرَ مثلينا خليلي صباية
أشدَّ على رغم الأعادي تصافيا
خليلان لا نرجو اللقاء ، ولا نرى
خليلين إلا يرجوان التلاقيا

(١) مدانياً : متقارباً ومشابهاً .

(٢) الحاج : جمع حاجة ، أي المكارب والغايات .

(٣) الحقيق : اسم موضع .

(٤) تشرى : تبساع . أرى حاجتي : أي مأربي من الحياة وهو

« ليلي » .

وإني لأستحييك أن تعرض المنى
 بوصلك أو أن تعرضي في المنى ليا
 يقول أناس علّ مجنونَ عامر
 يريدُ سلواً ، قلت أنتي لما بيا (١)
 إذا ما استطال الدهر يا أم مالك
 فشان المنايا القاضياتِ وشانيا (٢)
 إذا اكتحلت عيني بعينك لم تزل
 بخير وجلت غمرةً عن فؤاديا (٣)
 فأنتِ التي إن شئت أشقيتِ عيشتي
 وأنتِ التي إن شئتِ أشقيتِ باليا
 وأنتِ التي ما من صديقٍ ولا عدا
 يرى نضوّ ما أبقيتِ إلا رثى ليا (٤)
 أمضوبة ليلي على أن أزورها
 ومُتخذُ ذنباً لها أن ترانيا

-
- (١) أنسى : أي كيف السبيل إلى ذلك ؛
 (٢) وشانيا : وشائي ، سَهَلَتِ الهَمْزَةُ لضرورة القافية .
 (٣) جلت غمرة : أزاحت لها وأسى .
 (٤) النضو : الإنسان المهزول والثوب البالي الممزق [يقصد بالنضو
 نفسه المخطئة الممزقة] .

إذا سرتُ في الأرض الفضاء رأيتني
 أصانعُ رحلي أن يميل خيالياً (١)
 بينما إذا كانت بينما ، وإن تكن
 شمالاً ينازعني الهوى عن شمالياً
 وإني لأستغشي وما بي نَفْسة
 لعل خيالاً منك يلقي خيالياً (٢)
 هي السحر إلا أن للسحر رُقِيَّةٌ
 وإني لا أُلقي لها الدهر راقياً (٣)
 إذا نحنُ أدجننا وأنتِ أماننا
 كَفَى لمطايانا بذكرالكِ هادياً (٤)
 ذكَّتْ نار شوقي في فؤادي فأصبحت
 لها وهجٌ مستضرمٌ في فؤادياً (٥)

-
- (١) الرجل : الركاب . أصانع رحلي : أجعل السائرين معي يتجهون
 الى حيث ليلى .
 (٢) أستغشى : استحضر النوم . نفْسة : نغاس ورغبة شديدة في النوم .
 (٣) رُقِيَّة : خرز ورقاية أو ما يستعان به على السحر من قوى غيبية
 متوهمه . لا أُلقي : لا أجِد . لا أُلقي لها الدهر راقياً : أي لا أجِد
 لنفسي شفاءً من حبيبها .
 (٤) أدجننا : سرتنا في الليل المظلم .
 (٥) ذكَّت : اشتعلت .

ألا أيها الركبُ اليمانون عرجوا
 علينا فقد أمسى هوانا يمانيا ^(١)
 أسألكم هل سال « نعمان » بعدنا
 وحُبّ إلينا بطنُ نعمان واديا ^(٢)
 ألا يا حامي بطنِ نعمان ، هجنا
 عليّ الهوى لما تغنيتما ليا
 وأبكيتاني وسط صحي ، ولم أكن
 أبالي دموع العين لو كنتُ خاليا
 ويا أيها القمرِيتان تجاوزَيَا
 بلعنيتكما ثم اسجعا علانيا ^(٣)
 فإن أنتم استطربتما ، أو أردتما
 لحاقاً بأطلال « الفضى » فاتبعانيا ^(٤)
 ألا ليت شعري ما لليلي وما ليا
 وما للصبا بعد شيب علانيا

(١) الركب اليمانون : التجهون وجهة اليمن ، أي الجنوب .

(٢) نعمان : اسم موضع .

(٣) القمرِيتان : الحمامتان المفردتان . اسجعا : غرّدا . علانيا : أشقياني من وجدي وحي المبرح .

(٤) أطلال الفضى : أي الآثار المتبقية من المكان الذي كان يضمه ويحيطه مع ليلي ، والذي شهد ذكرايتها ممّا .

ألا أيها الواصي بليلى ، ألا ترى
إلى من تشبها أو بمن جثت واشيا
لئن ظمن الأحبابُ يا أم مالك
فما ظمن الحب الذي في فؤاديا (١)

فداء إلى ليلي :

'معدّتي ، لولاك ما كنت هائماً
أبييتُ سخين العينِ حرّان باكيا (٢)
معدّتي ، قد طال وجددي وشفّتي
هواك ، فيا للناس قلّ عزائيا (٣)
وقائلةٍ وارحمتما لشبابه
فقلت : أجل ، وارحمتا لشبابيا
وددتُ على طيب الحياة لو انّه
'يزادُ لليلي عمرها من حياتيا
ألا با حامسات العراق أعنتني
على شجني ، وابكين مثل بكائيا

(١) ظمن : رحل .

(٢) سخين العين : عينه تبكي بشدة وحرقة . حرّان : لفان .

(٣) شفّتي : أضنّاني وأسقمّني .

يقولون ليلى بالمراقِ مريضة
فيا ليتني كنت الطبيبَ المداويا
تمرُّ الليالي والشهور ، ولا أرى
غرامي لها يزداد إلا تماديا (١)

دعاء أخير :

فيا ربَّ إذ صيرتَ ليلى هي المُنَى
فزنتي بعينها كما زنتها ليا (٢)
وإلا فبغضها إليَّ وأهلها
فلاني بليلى قد لقيت الدواهي (٣)
على مثلٍ ليلى يقتلُ المرء نفسه
وإن كنتُ من ليلى على اليأس طاويا (٤)
خليليَّ إنْ ضننوا بليلى ، فقرِّبا
لي النعشَ والأكفان ، واستغفرا ليا (٥) .

-
- (١) تمادياً : بلوغاً إلى مداه وإمعاناً في الأمر . ويرى : غرامي بها بدلاً من غرامي لها .
(٢) فزنتي بعينها : جئتني بعينها .
(٣) الدواهي : المصائب المهلكة .
(٤) طاوياً : أي خفياً أمرى وحقيقة ما أكابده في نفسي .
(٥) ضننوا بليلى : منعوها عليَّ وحرموني منها . قرِّبا لي النعش والأكفان : هيئوها وجيزوها .

(بشينة)

لجميل بن معمر

وإني لأرضى من بشينة بالذي
لو أبصره الواسي لقرت بلائله
بلا ، وبألا أستطيع ، وبالمى
وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة المعجلى ، وبالحول تنقضي
أواخره ، لا نلتقي ، وأوائله
كانت هذه أول أبيات أستمع إليها من شعر جميل ،
وساعتها تمنيت لو أن بين يدي ديوان شعره كله ، أطالعه
وأ تأمله ، وأتوقف مع قصة هذا الفتى العذري - نسبة إلى
قبيلة عذرة - الذي أصبح علماً على هذا اللون من الحب العف ،
يسمو بحرمائه وعفته وشفافيته ، ويرتفع عن شهوات النفس
ومطالب الجسد ، ممتلئ الوجدان بالمعنى الروحي ..

في شعر جميل بثينة ، نتعرف على أرقى نماذج الحب العذري
وأصفاها وأصدقها وتراً وأشدّها حرارة . هو شعر يتلى
بشكاي النفس وما يلاقيه المحب المقيم من تبايرج الوجد ،
وقسوة البعد ، ومرارة الحرمان . ولكنه مع ذلك ، صادق
اللوعة ، عف الضمير واللسان ، رصين التعبير ، غني القلب
موفور الحس والشعور . ثم هو دائماً شاعر عاشق يرضى من
محبوبته بالقليل ، بل بالأقل من القليل :

أيا ربح الشمال ، أما تريني
أهيم ، وأنني بادي النحول
هي لي نسمة من ربح بثن
ومنى بالهبوب على جميل
وقولي : يا بثينة حسب نفسي
قليلك ، أو أقل من القليل

وهو شاعر دائم الحديث عن بخل حبيبته ، لكنه حديث
الراضي المستسلم ، لا يسخط ولا يفضب ولا يتعرد ، لا يهدد
ولا يتوعد ولا يثور ، وإنما هو 'مكتفٍ بمجرد الإشارة إلى
بخل بثينة بكل ما من شأنه أن يملأ حياته نعيماً وبهجة ، بخلها
بالوصال ، باللقاء ، بريء الصدي المتعطش :

ألا إنها ليست تجود لذي الهوى
بل البخل منها شيمة ، والخلائق

وماذا عسى الواشون أن يتحدثوا
سوى أن يقولوا إنني لك عاشق
نعم ، صدق الواشون ، أنت كريمة
عليّ ، وإن لم تصف منك الخلائق
وأقصى شكواه أن يقول :

لقد خفت أن يفتالي الموت عنوة
وفي النفس حاجات إليك كما هيا
وإني لتثني الحفيظة ، كلما
لقيتك يوما ، أن أبشك ما بيا
ألم تعلمي يا عذبة الريق أنني
أظلك ، إذا لم ألقى ريقك ، صاديا

ويحدثنا التاريخ أن جميل بن عبد الله بن معمر العذري قد
سبب فؤاده بثينة بنت حبا بن 'جنّ بن ربيعة العذري ،
فالشاعر وحبيته ينتميان إلى شجرة واحدة في النسب ،
ويقعان معا في مكان واحد هو وادي القرى - وهو موضع في
الحجاز قريب من المدينة .

وكما حدث لقيس بن الملوّح وليلاء بعد أن ذاعت قصة

حبها وتناقلت أخبارها الركبان ، فحرمتم عليه وزوجت
من غيره ، حدث جميل وبثينة ، بعد أن ذاع شعره فيها
وهيامه بها ، وتحدث بها الناس في القبيلة وخارج القبيلة ، حتى
إذا جاء جميل إلى أبيها خاطباً رفضه أبوها خشية أن يقال إنه
زوجها منه سترأ لعارها ..

وتزوج بثينة إلى فتى من عذرة : هو نبيه بن الأسود ،
لكن زواجها لا يمنع جيلاً عنها ، فهو يزورها خفية في بيت
زوجها ، ويقول فيها القصيدة بعد القصيدة ، وتساعده هي
وتدبر له الأمر حيناً ثم تصد عنه أحياناً ، وهو في الحالين
مستطار اللب ، طائر العقل ، مسلوب القلب .

وتنضي الأيام ، ويدب اليأس في قلب جميل ، فيهاجر إلى
مصر ، ويمرض فيها مرضه الأخير .. حتى إذا حضرته الوفاة
كانت آخر كلماته من أجل بثينه حباً ، وتذكراً وتعلقاً
ووفاء ، حتى الرمق الأخير .. ويموت جميل سنة اثنتين وثمانين
من الهجرة ، ويبقى من بعده صوته الشعري المتوهج بالحرارة
والصدق ، ينطق بعذريته وعفته وصادق حبه ومكابدته :

أرى كلَّ معشوقين غيري وغيرها
يلذات في الدنيا ويغتبطان
وأمشي ونشي في البلاد كأننا
أسيران للأعداء مرتهنان

ضمنتُ لها ألا أهم بغيرها
وقد وثقتُ مني بغير ضمان

* * *

والقصيدة التي نطالعها الآن لجيـل مني أشهر قصائده ،
وأطولها ، وأكثرها تعبيراً عن فطرته العاشقة ، وأسلوبه
الشعري ، الذي يتفق في الكثير من جوانبه مع الطابع العام
لشعر العذريين ، أمثال قيس بن الملوّح (مجنون ليلى) وكثير
عزة وقيس لبنى وعروة بن حزام وأبي صخر الهذلي وغيرهم ..
ويظل هذا الغزل العذري على لسان جميل وأضرابه عميق
التأثير في النفس ، شديد الإثارة للعاطفة ، وهو غزل لا يتوقف
عند مجرد التشبيب بمجاسن المرأة ومفاتها - على عادة الشعر
العربي القديم - وإنما هو يتجاوز ذلك إلى الامتلاء الروحي
بنفس الشاعر ومشاعرها وآلامها وآمالها ، والتعبير عن طبيعة
العلاقة العفّة الصادقة الحب التي تربطه بحبيبته التي وقف عليها
قلبه دون سائر النساء ، وصارت وحدها ملهمته ومحرور نجاواه
ونداءاته ..

يقول جميل بن معمر :

ألا ليت ريعان الشباب جديدُ
ودهرأ تولى - يا بشين - يعود^(١)

(١) ريعان الشباب : أوله وأفضله ونضارته .

فنبقى حكيما كنا نكون ، وأفتنمو
قريب ، وإذا ما تبذلين زهيد^(١)
وما أنسى م الأشياء لا أنسى قولها
وقد قرأت نضوي : أمصر تريد ؟^(٢)
ولا قولها : لولا العيون التي ترى
لوزتك ، فاعذرنى ، فدتك جدود
خليلي^(٣) ، ما ألقى من الوجد باطن^(٤)
ودمعي - بما أخفي الغداة - شهيد
ألا قد أرى ، والله ، أن رُبَّ عبدة
إذا الدار شطت بيننا ستزيد^(٥)
إذا قلت : ما بي يا بثينة قاتلي
من الحب ، قالت : ثابت^(٦) ويزيد^(٧)
وإن قلت : ردّي بعض عقلي أعش به !
فولت وقالت : ذاك منك بعيد
فلا أنا مردود^(٨) بما جئت طالبا
ولا حبها فيما يبيد يبيد^(٩)

(١) نضوي : النظر : الهزيل ، والمقصود به هنا : ناقص الهزيمة
م الأشياء : من الأشياء .
(٢) عبدة : دمة ، شطت : بعدت وتناوت .
(٣) يبيد : يفنى ويذول .

جزتك الجوازي يا بشين سلامة
 إذا ما خليل بان وهو حميد (١)
 وقلت لها : بيني وبينك فاعلمي
 من الله ميثاق له وعهود
 وقد كان حببكم طريفاً وقالداً
 وما الحب إلا طارف وتليد (٢)
 وإن أعروض الوصل بيني وبينها
 وإن سلته بالمتى لكؤود (٣)
 وأفنيت عمري بانتظاري وعدما
 وأبليت فيها الدهر وهو جديد
 ويحسب نسوان من الجهل أنني
 إذا جئت إياهن كنت أريد
 فأقسم طرقي بينهن فيستوي
 وفي الصدر يون بينهن بعيد (٤)

-
- (١) الجوازي : جمع جازية ، وهي المكافأة . بان : رحل .
 (٢) طارف وتليد : حديث وقديم .
 (٣) الأعروض : الطريق الوعر في عرض الجبل يكتنفه مضيق ،
 والمقصود به هنا : واقع الحال بينه وبين حبيبته في الوصال واللقاء .
 كؤود : الشاق ، الصعب .
 (٤) أقسم طرقي : أوزع النظر .

ألا ليت شعري هل أبين ليلة
 بوادي القرى ، إني إذن لسعيد ^(١)
 وهل أهبطن أرضاً تظل رياحها
 لها بالثنايا القاويات وثيد ^(٢)
 وهل ألقين « سعدى » من الدهر مرة
 وما رث ^(٣) من حبل الصفاء جديد
 وقد تلتقي الأشتات بعد تفرق
 وقد تدرك الحاجات وهي بعيد ^(٤)
 إذا جئها يوماً من الدهر ، زائراً
 تعرض منفوخ اليدين صدود ^(٥)
 بصدء وينضي عن هواي ويحتفي
 ذنباً عليها ، إنه لعنود

-
- (١) وادي القرى : اسم موضع قرب المدينة ، كان يقيم فيه قوم
 جيل وبثينة .
 (٢) الثنايا القاويات : الطرق الخالية . وثيد : صوت عال شديد .
 (٣) رث : قدم وبلي .
 (٤) الأشتات : جمع شتيت ، أي المتفرق والتباعد .
 (٥) المنفوخ : من أصابته رعدة الحمى . والرعدة هنا بسبب الغضب
 والغيرة ، والمقصود به زرج بثينة .

فأصرمها خوفاً ، كأنني بجانب
 ويغفل عنا مرةً ، فنعود^(١)
 ومن يُعْطَ في الدنيا قريناً كمثلاً
 فذلك في عيش الحياة رشيد^(٢)
 يموت الهوى مني إذا ما لقيتها
 ويحيا إذا فارقتها فيعود
 يقولون : جاهد يا جميل بغزوة
 وأيَّ جهاد غيرهن أريد ؟
 لكل حديث عندهن بشاشة
 وكل قتيل عندهن شهيد
 وأحسن أيامي ، وأبهج عيشتي
 إذا هيج بي يوماً وهن قعود
 تذكرت ليلى فالغواد عيّد
 وشطّئت نواها فالنزار بعيد^(٣)

(١) أصرمها : أجافها وأقاطمها . بجانب : مبتعد لا غاية له فيها .

(٢) قريناً : زوجة .

(٣) العميد : العاشق التيم الذي هدّاه العشق . شطّئت فراها : بعدت بها المسافات .

علقت الهوى منها وليداً ، فلم يزل
إلى اليوم ينمي حبها ويزيد^(١)
فما ذكر الخلان إلا ذكرتها
ولا البخل إلا قلتُ سوف تجود
إذا فكرت قالت : قد أدركتُ وده
وما ضرتني بخلي ، فكيف أجود^(٢)
فلو تكشفُ الأشياء ، صودف تحتها
لبنة حب طارف وتليد
أم تعلمي يا أم ذي الودع أنسي
أضاحك ذكراكم وأنتِ صلود^(٣)

(١) علقت الهوى : أصابني الهوى وتعلقني . ينمي : يزيد ويتضاعف .

(٢) قد أدركت رده : قد استحوذت على مودته وحبه رغم بخلها .

(٣) الودع : خورزات بيض تستخرج من البحر تشق كالنواة وتعلق في أعناق الأطفال لدفع الحسد ، والقصود بأم ذي الودع : بشينة . صلود : بخيلة جداً .

لهل ألقين فرداً بشينة ليسة
تجود لنا من ودّها ونجود^(١)
ومن كان في حي بشينة يمتري
«غبرقاء» ذي ضال» عليّ شهيد^(٢)

(١) فرداً : منفرداً ، بعيداً عن الناس .

(٢) يمتري : يشك . برقاء ذي ضال : اسم موضع كان جميل وبشينة
يلتقيان فيه بعيداً عن الرقباء .

[لُبْنَسِي]

لقيس بن ذريح

يقول عنه ابن فضل الله العمري في كتابه : « ممالك
الأبصار » :

عاشق شفه التبريح ، وواقم لم يشفه التصريح ، قيمه
حُب 'لُبْنَسِي' وهيئه هواها فما أغنى ، أصبته حسنا ومبته
بمحيا كالبدن أو أسنى ، جلبت له حزناً طويلاً ، وجنت له
من روض حسنها مرعى وبيلاً ، تزوج بها وهو بها كليف ،
وبحبها شغف ، ثم أدمن مجالستها وأدمن مؤانستها ، وولس
بتأمل محاسنها ، وتنتقل نظره في رؤية أحاسنها ، حتى طبع
هواها على قلبه ، وطلع أنينه بما قطع من غلبه ، وألف لأجلها
ظل الحياء لا يفارقه ، وأنكر فضل الحياء كأنه ما دبّت
بخدمه شقائقه .

فمزّ هذا على أبيه ، وطالبه بطلاقها فأبى ، وأبى أبوه إلا
أن يذيقه مرارة فراقها على صبي . ثم لما رأى إصراره على

حب لبني واستمراره على حاله المعني ، أصغر أبوه وآلى ألا
يستظل ببيت حتى يلقي حبها على غاربها ، ويلعق خطاهما
ببيت أقاربها ، وكان أوان حرّ تلفح هواجره وينفح بالسموم
ناجره .

فأقبل كهول الحي على قيس يلومونه على حقوق أبيه ،
ويخوفونه عقوق أمه في امرأة تصيبه ، ثم ما برحوا به حتى
طلقها . فما انطلقت إلا هي ولبّيه ، وفارقها فما فارقت إلا
ومعها قلبه . ووجد بها رجلاً أفلق مضاجعه ، وقلقل في
المآقي مدامعه ، وزوجه أبوه بامرأة غيرها ليسلو لبني ويخلو
معا أياماً ينسى بها لياليه الحسنى ، فما وقعت الثانية منه
موقعاً ، ولا وجدت في قلبه موضعاً ، فبيّت فراقها ، وبّت
طلاقها .

ثمّ الناس في قيس على قسمين : فمنهم من زعم أنه ردّها ،
ونعم بها ليل التّام يفتش بردها ، ومنهم - وهم الجمهور -
على أنه بقي بخباله ، صريع هوّى ما أفاق ، وقريع جوّى
مُنّي من أحبابه بالفراق . . .

* * *

هذه هي القصة ، قصة قيس ولبنى كما جاءت في كتب
التراث العربي القديم ..

وقيس هذا هو قيس بن ذريح بن الحباب بن منّة ..

ينتهي نسبه إلى خزيمه من عرب الشمال .. ويقولون إنه من
أعراب الحجاز، وإن قوم قيس كانوا ينزلون في ظاهر المدينة ،
أما هو وأبوه فكانا من حاضرتها .. ويبدو أنه كان كثير
التنقل بين بوادي المدينة حيث يقيم أهله وبوادي مكة حيث
يقيم أهل أمه من خزاعة .

أما لبني هذه التي تغنى بها قيس ، وصار منسوباً إليها ،
فهي لبني بنت الحباب أم معمر ، من بني كعب من خزاعة ،
يصفونها بأنها كانت مديدة القامة ، يخالط سواد عينيها زرقة ،
حلو المنظر والكلام ، وقالوا أيضاً إنها كانت بهية الطلعة ،
عذبة الكلام ، سهلة المنطق . وتبدأ القصة على هذه الصورة :
في إحدى زورات قيس لأخواله ، اشتد الحر فشعر
بالظما ، فوقف على خيمة والرجال غائبون ، فطلب ماء ،
فبرزت له لبني فسقته وأعجب بها ، وطلبت إليه أن يستريح
عندهم حتى تخف وطأة القيظ ، فلباها وتحادها ، فملكت عليه
فؤاده ، وملك عليها فؤادها ، وقدم أبوها فرحّب به ونحرّ له ،
واحتفى ، وأكرمه . وانصرف قيس وقد غلبه الهوى ،
فأنطقه شعراً رواه الرواة ، وشاع في المجالس .

ويتزوج قيس من لبني ، ويجمع شمل الحبيبين ، ويقمان
أمدأ في ظل سعادة وارفة ، وهناء متصل ..

لكن قيساً - وحيد والديه الثريين - ينسبه حبه للبني
وزواجه منها كل شيء آخر في حياته .. فتغضب أمه لما ترى

من اغتصاب امرأة أخرى له ، فتكيد لزوجته ، وتتفنن في الإيقاع بينها .. خاصة وأن لبنى لم تتجيب من قيس . ويستمر الحال هكذا عشر سنوات .

ثم يجتمع عليه أبوه وقومه ناصحين له بالزواج من إحدى بنات عمه ، لعل الله أن يهب له ولداً يرث ثروة الأسرة من بعده .. ولا يستجيب لهم قيس ، فيجيئه القوم ثانية من كل ناحية ، ويمظمون عليه الأمر ، إذ كيف يفعل مسداً بأبيه وأمه ؟ ولئن مات أبوه على هذه الحال فهو 'معين' وشريك في قتله .

ويصطرع في نفس قيس برؤه بوالديه وحبه لزوجته ، ولا تحتل نفسه هذا الموقف الصعب ، وأخيراً ينهار في لحظة ضعف فيرضخ لطلب أبويه وإلحاح قومه ، ويطلق لبنى .

ثم لا يلبث قيس أن يستشعر وقع القبيحة ، فجيئته في حبه ، ويحس بالفراغ الذي خلفته لبنى في حياته ، واللوعة التي ملكت كل جوارحه ، فينطلق لسانه بالأشعار الباكية .

* * *

نحن إذن أمام واحدة من قصص الحب العذري ، بطلاها عاشا في مستهل القرن الأول الهجري — فالروايات تذكر لنا أن قيساً ولد بين عامي أربعة وستة للهجرة — واختلطت قصتها — بما تتلى به من حكايا وأشعار — ببقية قصص هذا الحب ، خاصة بقصة قيس بن الملوّح وليلاه — المعروف باسم

مجنون ليلي - وأصبح الناس ينسبون شعر هذا إلى ذاك ،
ما دام كله شعراً. عذرياً ، واضح الخصائص والسمات ، بسل
وينسبون القطعة الواحدة إلى شعراء متعددين .. لهذا فتحن
نجد في ديوان قيس لبنى أربعاً وعشرين مقطوعة يتنازعها مع
مجنون ليلي ، فضلاً عن قصائد أخرى يتنازعها مع جميل بثينة
وابن الدؤينة وكثير عزّة وعروة بن حزام ..

وفي شعر قيس بن ذريح ما نجده في شعر المذريين من رقة
وجزالة ، وعاطفة صادقة مشبوية .. وتعبير جميل آسر .
يقول عنه القدماء : « ونظمه في الذروة العليا رقة وحلاوة
وجزالة » . وأطول قصائده وأشهرها هي قصيدته العينية ،
التي نطالع فيها صورة صادقة لحبه العميق للبنى ، متضمنة
ندمه ولوعته بعد طلاقها منه وفراقها له ، ولكن هيهات ينفع
الندم ، إن خلاصه الوحيد في البكاء ، وبث شجونه ولوعة
هيامه ، خلال أبيات يرسلها وقد حملت زفرات من سحر قلبه
وحرارة معاناته ..

يقول قيس بن ذريح :

عفا سرفٌ من أهله فسُراوِعُ

فجنبنا أريكِ فالتلاعُ الدوافعُ (١)

(١) سرف وسراوِع : موضعان بالقرب من مكة . أريك : واد في
بلاد بني مرة . التلاع : جمع تلعة ، وهي مجرى الماء من أعلى الوادي .
الدوافع : التي تدفع وتهبط إلى الوادي .

لعلَّ لُبَيْنى أن يُحَمَّ لقاؤها
 ببعض البلاد ، إنَّ ما حُمَّ واقعٌ (١)
 يَحِزُّع من الوادي خلا عن أنيسه
 عفا وتخطَّتهُ الميُون الخوادم (٢)
 ولما بدا منها الفراق ، كما بدا
 بظهر الصفا الصلر الشقوق الشوائع (٣)
 تمنَّيتَ أن تلقى لُبَيْناك ، والمنى
 تعاصيك أحيانا ، وحينما تطاوع
 وما من حبيبٍ وامتقٍ لحبيبه
 ولا ذي هوىٍ إلا له الدهر فاجعٌ (٤)
 وطار غراب البين وانثقت العصا
 بينن كما شقَّ الأديم الصوانع (٥)

-
- (١) حُمَّ : قدر وقضي .
 (٢) الجزع : جانب الوادي ومنعطفه . عفا : درس وزال . الخوادم :
 التي لا تنام .
 (٣) الصفا الصلر : الحجر الصلب الضخم . الشوائع : المخرقة
 أو الظاهرة .
 (٤) وامتق : شديد الحب .
 (٥) البين : الفراق . انثقت العصا : تفرقت الأبر . الأديم : وجه
 الأرض . الصوانع : جمع صانع .

ألا يا غراب البين قد طرت بالذي
 أحاذر من لُبنى ، فهل أنت واقع ؟
 وإنك لو أبلغتها قيلك : اسلمي
 طوّتْ حزنًا وارفضْ منها المدامع ^(١)
 أتبكي على لبنى ، وأذت تركتها
 وكنت كأتِ غيّه وهو طائع ؟ ^(٢)
 فلا تبكين في إثر شيء ندامة
 إذا نزعتْ من يدك النوازع
 فليس لإمرءٍ حاول الله جمعَه
 مُشيتْ ، ولا ما فرّق الله جامع ^(٣)
 طمعتْ بلبنى أن تريحَ ، وإنما
 تقطع أعناق الرجال المطامع ^(٤)
 كأنك لم تمنع إذا لم تلاقها
 وإن تلحقها فالقلب راضٍ وقانع

(١) قيلك : قولك . ارفضْ : سال وتفرّق .

(٢) الغي : الضلال والخيبة .

(٣) مُشيتْ : مفرّق .

(٤) ريع : رجع .

فيا قلبُ خبّرني إذا شطّئت النوى
 بلبني وصدّت عنك ما أنت صانع ^(١)
 أتصبرُ للبينِ المُشيتِ مع الجوى
 أم أنت امرؤٌ ناسي الحياء فجازع
 فما أنا إن بانت لبيني بهاجع
 إذا ما استقلت بالنيام المضاجع
 وكيف ينام المرء مستشعر الجوى
 ضجيج الأسى فيه نكاسٌ روادع ^(٢)
 فلا خيرَ في الدنيا إذا لم تُواتِنَا
 لبيني ، ولم يجمع لنا الشمل جامع
 أليست لبيني تحت سقفٍ يُكِنها
 وإيتاي ، هذا إن فأت لي نافع ^(٣)
 ويلبسُنَا الليل البهيمُ إذا دجا
 ونبصر ضوء الصبح والفجر ساطع ^(٤)

(١) شطّئت : بعدت .

(٢) النكاس : جمع نكس وهو المرء المفاود الذي لا يبرح . الروادع : جمع وادعة وهي التي تردعه (تمنعه) عن الحركة والتصرف .

(٣) يَكْنِها : يجمعها ويؤويها . السقف : المقصود به هنا هو السماء .

(٤) دجا : أظلم .

تطا تحت رجلها بساطاً وبعضه
أطاهُ برجلي ، ليس يطويه مانع^(١)
وأفرح إن أمست بخير وإن يكن
بها الحدث العادي ترعني الروائع^(٢)
كأنك بدع لم ترَ الناس قبلها
ولم يطلّلك الدهر فيمن يطالع
فقد كنت أبكي والنوى مطمئة
بنا وبكم من علم ما البين صانع
وأهجركم مجر البغيض ، وحكم
على كبدي منه كلوم^(٣) صواع^(٤)
فواكبدي من شدة الشوق والأسى
وواكبدي إني إلى الله راجع
وأعجل للإشفاق حقي يشفني
مخافةً وشكّ البين والشمل جامع^(٥)

(١) تطا : تطأ (رخلفت الهزة) .

(٢) الحدث العادي : الخطب الجسج النازل بها . ترعني : تفرعني .
الروائع : المفزعات .

(٣) الكلوم : جمع كلم ، الجرح . الصواع : المزلزلة المؤثرة .

(٤) يشفني : يطمئني . وشكّ البين : قرب الفراق .

وأعد للأرض التي من ورائكم
لترجمني يوماً إليك الرواجع
فيا قلب صبراً واعترافاً لما ترى
ويا حبيباً قم بالذي أنت واقع
لعمري لمن أمسى وأنت ضجيرة
من الناس ما اختيرت عليه المضاجع^(١)
ألا تلك لبني قد تراخي مزارها
وللبين غمّ ما يزال ينزاع
إذا لم يكن إلا الجوى ، فكفى به
جوى حرقٍ قد ضمنتها الأضالع
أبائنة لبني ولم تقطع المسدى
بوصلٍ ولا صرمٍ فيبأس طامع^(٢)
يظل نهارُ الواهين نهاره
وتهده في النائم المضاجع^(٣)

(١) ضجيرة : زوجته وحليته . لما اختيرت عليه : ما فضلت عليه .

(٢) الصرم : القطيعة والفراق .

(٣) الواهين : جمع راله ، الشديد الحزن والوجد حتى ليكاد يفقد عقله . تهده : تسكنه وتهدهه .

سواءٌ ، فليلي من نهاري وإنما
 تقسم بين الهالكين المصارع ^(١)
 ولولا رجاء القلب أن تسعف النوى
 لما حملته بينهن الأضالع
 له وجباتٌ إثر لُبني ، كأنها
 شقائق برقٍ في السحاب لوامع ^(٢)
 نهاري نهار الناس حتى إذا دَجَا
 ليّ الليل هزّتي إليك المضاجع
 أقضي نهاري بالحديث وبالمنى
 ويجمعني والهَمّ بالليل جامعُ
 لقد ثبتت في القلب منك مودةٌ
 كما ثبتت في الراحتين الأصابع ^(٣)
 أبى الله أن يلقى الرشاد مُتَيْمٌ
 ألا كلُّ أمرٍ حَمٌّ لا بدَّ واقع ^(٤)

-
- (١) سواء : أي سواء عليّ ليلي ونهاري فيها متشابهان في وقعها عليّ .
 (٢) وجبات : خفقات ، شقائق برق : موجات من البرق المتتابع .
 (٣) الراحتان : اليدين . [هذا البيت والبيتان السابقان له ينسبها الرواة إلى مجنون ليل أيضاً] .
 (٤) حَمٌّ : قدّر ونزل .

هما برّحا بي مُعولينِ كلاما
 فؤادٌ وعينٌ جفنها - الدمر - دامع^(١)
 إذا نحن أنقدنا البكاء عشيّة
 فمعدنا قرن من الشمس طالع^(٢)
 وللحب آياتٌ تبينُ بالفق
 شحوبٌ وتعري من يديه الأشاجع^(٣)
 وما كلُّ ما مننتك نفسك خاليا
 تلاقيني ، ولا كلُّ الهوى أذت تابع
 تداعت له الأحزان من كل وجه
 فحننٌ كما حن الظُّوار السواجع^(٤)
 وجانب قرُب الناس يخلو بهم
 وعواده فيها هيام مراجع

-
- (١) برّحا بي : أتعباني وأجهداني . الدمر : طول الدمر .
 (٢) أنقدناه : أنهيناه ولم نترك منه شيئا . قرن من الشمس : شروق
 الشمس في صباح اليوم التالي .
 (٣) تبين : تظهر . الأشاجع : أصول الأصابع التي تتصل بالأعصاب
 أو هي عروق ظاهري الكف . وتعري الأشاجع : أي تهزل اليداث
 ويلعب ما عليها من لحم .
 (٤) تداعت : أقبلت وتجمعت . الظُّوار : النياق التي تعطف على ولد
 غيرها . السواجع : التي يمور بها الحنين .

أراك اجتثبت الحى من غير بغضة
ولو شئت لم تجنح إليك الأصابع ^(١)
كأن بلاد الله ما لم تكن بها
- وإن كان فيها الخلق - قفر بلاقع ^(٢)
ألا إنما أبكى لما هو واقع
وهل جزع من وشك بينك نافع ؟
أحال علي الدهر من كل جانب
ودامت فلم تبرح علي الفجائع ^(٣)
فمن كان محزوناً غداً لفراقنا
فيلان فليبك لما هو واقع ^(٤)

(١) بغضة : كراهية وعداوة . تجنح : تميل .
(٢) بلاقع : جمع بلقع وهي الأرض الخراب القفر .
(٣) أحال علي : دفع بالمصائب وصرفها الي .
(٤) فلان : لمن الآن .

عزّة..

لكثير عزّة

يُزهدني في حبّ عزّة معشر
قلوبهم فيها 'مخالفة' قلبي
فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضى
فبالقلب لا بالعين يبصر ذو اللبّ
وما تبصر العينان في موضع الهوى
ولا تسمع الأذنان إلاّ من القلب

* * *

هو كثير بن عبد الرحمن الخزاعي ، شاعر حجازي من شعراء العصر الأموي ، ويكنى أبا صخر ، اشتهر بكثير عزّة نسبة إلى محبوبته عزّة التي قال فيها أكثر شعره في الغزل والتشبيب ، والعزّة في اللغة هي بنت الظبية ، أما عزّة هذه فهي بنت جميل بن حفص وكنيتها أم عمرو وكان يطلق عليها أيضاً الحاجبية نسبة إلى جدها الأعلى .

ويقول لنا رواة الشعر العربي القديم إن كثير عزة أحد
عشاق العرب البارزين ، وانه شاعر أهل الحجاز ، وإنهم
ليقدمونه على كثير من شعراء أهل زمانه حتى لقد قال بعضهم
إنه أشعر أهل الإسلام ...

ثم يقدمون له صورة وصفية طريفة ، فهو قصير شديد
القصر ومن هنا كانت تسميته بكثير على سبيل التصغير . يقول
الوقاصي : رأيت كثيراً يطوف بالبيت فمن حدثك أنه يزيد
على ثلاثة أشبار فلا تصدقه ، وكان كثير إذا دخل على
عبد الملك بن مروان - الخليفة الأموي - يقول له : طأطأ
رأسك حتى لا يصيبه السقف ..

ويصرح كثير نفسه بهذا القصر في شعره فيقول :

وإن ألكُ قصراً في الرجال فإني

إذا حلّ أمرٌ ساحتني لطويل

ثم يضيفون أنه كثير الاعتداد بنفسه ، كثير المعجب
والزهو والخيلاء ، حتى إن الناس كانوا يحسونه من وراء
فيأخذون رداءه فلا يلتفت من الكبير ويمضي في قيص ...
وإنه كان يؤمن بالرجعة والتناسخ .

وكان خلفاء بني أمية - وفي مقدمتهم عبد الملك بن مروان -
شديدي الإعجاب بشعره ، خاصة مدائحه . يروون أنه قال
 يوماً لعبد الملك : كيف ترى شعري يا أمير المؤمنين ؟

قال : أراه يسبق السحر ويفلب الشعر ..
وقال له عبد الملك يوماً : من أشعر الناس يا أبا صخر ؟
قال كثير : من يروي أمير المؤمنين شعره .
فقال عبد الملك : إنك لمنهم ..

ويتفنن الرواة في صياغة أخباره وقصصه مع محبوبته عزة ،
وكيف بدأ تعشقه لها ، فيقولون إنه مرّ ذات يوم بنسوة من
بني حمزة ومعه قطيع أغنام ، فأرسلن إليه «عزة» وهي بعد
صغيرة فقالت له : تقول لك النسوة بعنا كبشاً من هذه الغنم ،
وانسئنا بشمنه إلى أن ترجع - أي أمهلنا في دفع ثمنه حتى
تعود - فأعطاهما كثير كبشاً ، ووقعت هي من قلبه موقعاً
عظيماً ، فلما رجع جاءت امرأة منهن بدراهمه فقال لها :
وَأَيْنَ الصبية التي أخذت مني الكبش ؟ قالت : وما تصنع بها ؟
هذه دراهمك ، فقال : لا آخذ دراهمي إلا ممن دفعت إليه :
وانصرف وهو ينشد :

قضى كلُّ ذي دينٍ فوقى غريمه
وعزّةٌ ممطولةٌ مُعنى غريمها
فقلن له : أبينت إلا عزّة ! وأبرزناها له وهي كارهة . ثم
لأنها أحبته بعد ذلك أشدّ من حبه لها .

ويحلو للقدماء أيضاً أن يقارنوا بينه وبين جميل بن معمر
صاحب بشينة . فيقولون إن كثيراً يتقول ولم يكن عاشقاً أما

جميل فكان صادق الصبابة والعشق ، وإن جميلاً كان يصدق في حبه أما كثير فيكذب في حبه ..

ثم يضيفون أن عدد النساء اللواتي شيّعهن عند موته كان أكثر من عدد الرجال ، وكن يبكينه ويذكرن عزته في نديهن .. وكادت وفاته في خلافة يزيد بن عبد الملك سنة خمس ومائة من الهجرة ..

* * *

والقصيدة التي نطالعها الآن من شعر كثير هي أطول قصائده على الإطلاق ، وأشهرها ، وأكثرها ذيوماً ، والقدماء يعدونها من منتخباته ، والغريب أن كثيراً يلتزم في ختام أبيات هذه القصيدة حرف اللام قبل حرف الروي وهو التاء ، فجعل لها قافية مزدوجة من اللام والتاء ، فهي إذن صورة متقدمة لشعر اللزوميات الذي عرفناه بعد ذلك عند أبي العلاء المعري . ولهذا القصيدة - الناطقة بفن كثير الشعري ، وأسلوبه السهل المتنوع في صياغة المعنى الشعري والصورة الشعرية - قصة "طريقة" ، من الطريف أن نستمع إليها .

روي أن عبد الملك بن مروان سأل كثير عزة عن أعجب خبر له مع عزة فقال : يا أمير المؤمنين حججت ذات سنة وحج زوج عزة معها ولم يعلم أحداً بصاحبه ، فلما كنا ببعض الطريق أمرها زوجها بابتياح سمّين تصلح به طعاماً لرفقته فجعلت تدور بالحياض خيمة خيمة حتى دخلت إلي وهي لا تعلم أنها

خيمتي وكنت أبري سها ، فلما رأيتها جعلت أبري لحي
وأنظر إليها حتى بريت ذراعي وأنا لا أعلم به والدم يجري ،
فلما علمت ذلك دخلت إلي فأمسكت يدي وجعلت تمسح
الدم بثوبها ، وكان عندي نجىء سمن (وعاء سمن) فحلفت
لتأخذه فأخذه ، وجاء زوجها فلما رأى الدم سألها عن خبره
فكأنته حتى حلف عليها لتصدقنه فصدقته فضرها وحلف
عليها لتشتمني في وجهه فوقفت علي وقالت لي وهي تبكي :
يا ابن (....) فأنشدت :

خليلي ، هذا ربع عزة ، فاعقلا
فلوميكما ، ثم ابكيا حيث حلت^(١)
ومثا ترايا كان قد مس جلدنا
وبيتنا وظلا حيث باتت وظلات
ولا تياسا أن يحو الله عنكما
ذنوباً إذا صليتما حيث صلت
وما كنت أدري قبل عزة ما البكا
ولا موجعات القلب حتى تولت^(٢)

(١) ربع عزة : موضع دارها . اعقلا : شدا واربطا . فلوميكما :
القلوص الناقة الشابة النشيطة .

(٢) تولت : ذهبت وأدبرت .

وقد حلفت جهداً بما نحررتُ له
 قريشُ غداة « المأزمينِ » وصلتُ (١)
 أناديكِ ما حجُّ الحجيجِ وكبرتُ
 « بغيفاً غزالٍ » رفقةً وأهلَّتُ (٢)
 وما كبرتُ من فوق « ركة » رفقة
 ومن « ذي غزالٍ » أشعرتُ واستهلَّتُ (٣)
 وكانت لقطعِ الجبلِ بيني وبينها
 كنافذةٍ نذراً ، فأوفتُ وحلتُ (٤)
 فقلتُ لها : يا عزُّ كلِّ مصيبةٍ
 إذا وطئتُ يوماً لها النفسُ ذاتُ (٥)

(١) المأزمان : موضع بمكة بين المشعر الحرام وعرفة (بين عرفة والمزدلفة) وهو شعب بين جبلين يفضي آخره إلى بطن عرفة وبه المسجد الذي يجمع فيه الإمام بين صلاتي الظهر والعصر . حلفت جهداً : أي بالفت في اليمين .

(٢) بغيفاً غزال : أي بغيفاً غزال ، موضع بمكة حيث ينزل الناس منها إلى الأبطح . أهلَّت : رفعت صوتها بالتلبية . ما حج الحجيج : أي طيلة مدة حج الحجيج .

(٣) ركة : واد بين مكة والطائف . رفقة : رفاق ، جمع رفيق . أشعرت : جعلت لنفسها شامراً . . وشعار القوم علامتهم في السفر .

(٤) حلت : أوفت بعهدها وخرجت من ميثاق كان عليها .

(٥) وطن نفسي على الشيء : أي حبلها عليه حتى تدل له وتخفض .

ولم يلقَ إنسان من الحب مبيعة*
تعمٌ ، ولا عبياء إلا تجلت (١)
تنبئتها حق إذا ما رأيتها
رأيت المنايا شرّعا قد أظلت (٢)
كأني أنادي صخرة حين أعرضت
من الصم لو تمشي بها العصم زلت (٣)
صفوحا فما تلقاك إلا بخيلة
فمن ملّ منها ذلك الوصلَ ملت
أباححت حمى لم يرعه الناس قبلها
وحلت تلاعا لم تكن قبل حلت (٤)
فليت قلوصي عند عزة قيدت
بجبل ضعيف 'حز' منها فضلت

(١) مبيعة الشيء : أوله أو معظمه . تعم : تشمل . العبياء : الضلالة والجهالة . تجلّت : انكشفت وانفجرت .

(٢) المنايا : جمع منية ، الموت . شرّعا : مسددة ، موجهة .

(٣) الصم : الصغور الصلبة المصمتة . العصم : جمع عصماء والأعصم من الغلبا والوعول مسا في ذراعيه أو إحداها بياض وسائره أحر أو أسود . زلت : زالت .

(٤) التلاع : جمع تلمة ، الأرض المرتفعة .

وغودر في الحبي المقيمين رحلها
 وكان لها باغ سواي فبليت (١)
 .كنت كذي رجلين : رجل صحيحة
 ورجل رمى فيها الزمان فشلت
 وكنت كذات الظلع لما تحاملت
 على ظلمها بعد العثار استقلت (٢)
 أريد الثواء عندها ، وأظنها
 إذا ما أطلنا عندها المكث ملت (٣)
 فما أنصفت ، أما النساء فبفضت
 إليّ ، وأما بالنوال فضدت (٤)
 يكلفها الغيران شمي ، وما بها
 هواني ، ولكن للمليك استذلت (٥)

(١) بليت : هامت ضالة* على وجهها .

(٢) كذات الظلع : كالناقة العرجاء . تحاملت : تكلفت المشي بشقة .
 استقلت : ذهبت وارتحلت .

(٣) الثواء : الإقامة . المكث : البقاء .

(٤) النوال : المطاء ، والمقصود به الوصال .

(٥) الغيران : ذو الغيرة ، يقصد به زوج عزة . المليك : أي المالك
 الذي يملك وهو زوج عزة . استذلت : هانت وخضعت .

هنيئاً مريئاً - غير دام مخامر -
لعزة من أعراضنا ما استحلّت (١)
فوالله ما قاربنا إلا تباعدت
بصرم ، ولا أكرث إلا أقلت (٢)
وكنا سلكننا في صعود من الهوى
فلما توافينا : ثبت وزات
وكنا عقدنا عقدة الوصل بيننا
فلما توائقنا : شددت وحلت
وإن تكن العتبي فأهلاً ومرحباً
وحقت لها العتبي لدينا وقلت (٣)
وإن تكن الأخرى ، فإنت وراءنا
منادح لو سارت بها العيس كلت (٤)

(١) مخامر : مغالط ومداخل . من أعراضنا ما استحلّت : يقصد
شكيمته في عرضه إطاعة لأمر زوجها .
(٢) صرّم : قطيعة ومجران .
(٣) العتبي : الرضى وإزالة اللوم .
(٤) منادح : جمع مندرحة وهي الأرض الواسعة البعيدة . العيس جمع
عيساء وأعيس : الإبل البيض الكريمة يخالطها شفرة أو ظلمة خفيفة .
كلت : تعبت من السير .

خليلي إن الحاجبية طلعت*
 قلو صيكا ، وناقني قد أكلت (١)
 فلا يبعدن وصل لعزة ، أصبحت
 بعاقبة أسبابه قد توات (٢)
 أسيتي بنا أو أحسنني ، لا ملومة*
 لدينا ، ولا مقلية إن تقلت (٣)
 ولكن أنيلي ، واذكري من مودة
 لنا خلّة كانت لديكم فطلت (٤)
 فإني وإن صدت لمثني وصادق
 عليها ، بما كانت إلينا أزلت (٥)
 فلا يحسب الواشون أن صبايقي
 بعزة كانت غميرة* فتجلت (٦)

-
- (١) الحاجبية : يقصد بها عزّة. طلعت وأكلت : أتعبت وأجهدت.
 (٢) فلا يبعدن : فلا يهلكن . بعاقبة : في ختام الأمر .
 (٣) مقلية : مبغضة ومكرومة من القلي ، أي البغض . تقلت : تبغضت .
 (٤) الخلّة : المحبة والصداقة . طلّت : أي منعت وأهدرت .
 (٥) أزلت : أسدت وأعطت .
 (٦) الواشون : الذين يشنون بالنميمة ويزينون الكذب . غيرة : شدة .
 تجلت : انفرجت .

فأصبحتُ قد أبليتُ من دَنَفٍ بها
 كما أدنِفتُ هَيْمَاءَ ثم استبليتُ (١)
 فواللهِ ثم الله ما حلَّ قبلها
 ولا بعدها من خَلَةٍ حيث حلَّت (٢)
 وما مرَّ من يومٍ عليَّ كيومها
 وإن عَظُمَت أيام أخرى وجلَّت (٣)
 وأضحت بأعلى شاقٍ من فؤاده
 فلا القلب يسلاها ولا العين ملَّت (٤)
 فيا عجباً للقلب كيف اعترافه
 وللنفس لَمَّا وطنت كيف ذلت (٥)

(١) أبليت : شفيت . الدنف : المرض الملازم . الهيماء : الناقة التي أخذها الهيام وهو داء يصيب الإبل فتظل تهم في الأرض دون أن ترعى حتى تموت . استبليت : برئت وشفيت .

(٢) الخلة : الخلية ، أي الحبيبة والصديقة .

(٣) أيام أخرى : أي أيام امرأة أخرى . جلت : عظمت .

(٤) الشاق : المرتفع . يسلاها : يلساها ، ويرى البيت هكذا :

والعين أسرابٌ ، إذا ما ذكرتها

والقلب وسواس إذا العين ملَّت

(٥) اعترافه : اضطباره . ذلت : خضت واستسلمت وأطاعت .

وإني وتَهَيَّأُني بعزَّةٍ بعدما
 تَخَلَّيْتُ ما بيننا وتَخَلَّتْ (١)
 لكالمُرْتَجِي ظِلَّ الغمامة ، كلما
 تَبَوَّأَ منها للعَاقِلِ اضمحلَّت (٢)
 كَأَنِّي وإيَّامها سحابةٌ مُمَحَلٌّ
 رجاها ، فلما جاوزتُه استهلَّت (٣)
 فإن سأل الواشون فيم هجرتها
 فقلْ : نفسٌ حُرٌّ سَلَّيْتُ فقلَّتْ (٤)

-
- (١) التَّهَيَّأُ : شدة الهيام والعشق بما يشبه الجنون . تَخَلَّتْ : تركت .
 (٢) تَبَوَّأَ المكان : اتخذهُ للإقامة . اضمحلَّت الغمامة : انقضت
 وذهبت .
 (٣) سحابةٌ مُمَحَلٌّ : سحابةٌ بلدٌ مُمَحَلٌّ (المُحَلُّ : الجذب وانقطاع المطر
 وخلوُّ الأرض من الكلأ) استهلَّت : أمطرت وصبت ماءها .
 (٤) الحر : الكريم ذو الإنفة . سَلَّيْتُ : أخذت تسلو أي تنسى .

وأمطرت لؤلؤًا

ليزيد بن معاوية

وهذه قصيدة فاتنة ، عنيت بها كتب البلاغة العربية ،
لامتلائها بالصور والتشبيهات والاستعارات التي يتذوقها
الدارسون على أنها نماذج لبلاغة التعبير الأدبي. والقصيدة تنسبها
كتب التراث العربي ليزيد بن معاوية بين ما ينسب له من
مقطوعات شعرية أخرى . ولئن صدقت هذه النسبة ، لكننا
إزاء شاعر أصيل مطبوع ، له أسلوبه الشعري المتميز ،
وطرائقه في التعبير ، وعنايته بالصور الطريفة المبتكرة ، تلك
التي هام بها البلاغيون والبدعيون استشهاداً وتحليلاً وتمثيلاً .
ولا نظن أن كتاباً من كتب البلاغة العربية يخلو من هذا
البيت الشعري المأثور ، يستشهد به على تتابع الاستعارات
والصور الشعرية :

وأمطرت لؤلؤاً من نرجسٍ وسقت

ورداً ، وعضت على العنابِ بالبرَدِ

وكثيراً ما نلكننا الدهشة والغرابة لهذا الشاعر الذي
افتنّ في وصف حبيبته وهي تبكي وتنتحب ، قصور دموعها
لؤلؤاً ، وعينيها نرجساً وخديها ورداً ، وشفتيها عُنَاباً ،
وأسنانها بَرَدًا .. وكل هذه الصور المجتمعة قد جاءت في بيت
واحداً ... فتأملوا !

وإذا صح أن الشاعر هو يزيد بن معاوية ، فهو إذن ثاني
خلفاء بني أمية ، تولى الحكم بعد وفاة أبيه معاوية ، وهو الذي
أمر عبد الله بن زياد وإلى الكوفة بمحاربة الحسين وأتباعه
فهمزهمس في كربلاء ، وقتل الحسين في المعركة .. وبمقتله
استتب الأمر للأمويين في دمشق ، واستقرت خلافتهم فيها ،
وبدأوا يلتفتون إلى ما أحاط حياتهم من رفاهية ونعيم ، وحياة
رغدة تليق بأهل القصور ..

لهذا نجد في شعر يزيد هذا الجوّ المترف ، وهذه الصور
الطيّعة لمن شب في رفاهية العيش ونعيمه وهنائه ، ورقّة
الطبع التي لا يؤاها إلا من عمرت نفسه ببهاج الحياة ومتعها ،
وأصبح الحب لديه صورة مُنغمة مطرزة ، يفتنّ في إكسابها
شتى الألوان والشمات .. يقول في إحدى قصائده :

خذوا بدمي ذاتَ الوشاح ، فإنني
رأيت بعيني في أناملها دمي
ولا تقتلوها إن ظفرتم بقتلها
بلى ، خبّروها بعد موتي بناتي

ثم يقول :

ولما تلاقينا ، وجدت بناهما
مخضبة تحكي عصابة عندهم

فقلت : خضبت الكف بعدي ، هكذا
يكون جزاءُ المستهام المتيم !

فقلت وأبدت في الحشا حرق الجوى
مقالة من في القول لم يتبرم

وعيشك ما هذا خضاباً عرفته
فلا تلك بالبهتان والزور متهمي

ولكنني لما رأيتك نائياً
وقد كنت لي كفي وزندي ومعصي

بكيت دماً يوم النوى ، فسحته
بكفتي ، وهذا الأثر من ذلك الدم

فهذا عاشق لا يستوقفه إلا الخضاب على أنامل محبوبته ،
فيدير معها هذا الحوار المترف - يذكرنا بما يدور من حوارات
ناعمة بين أهل القصور - ويختتمه بتوضيح سبب هذا الخضاب ،
فقد بكى المحبوبة عليه دماً يوم فراقه ، فلما أرادت مسح
هذا الدم بكفها تخضبت أناملها .. فهي لم تتزين قط بعد
رحيله حزناً عليه ، لكن دماً هو الذي يصبغ أناملها .

والعاشق هنا عاشق أمير ، المحبوبة هي التي تبكي عليه
غداة نأيه ويُبعده ، بعد أن كان لها الكفّ والزند والمعصم ،
وهي لا تبكي عليه دموعاً ولكنها تبكي عليه دماً ، من شدة
ما تحمله له من حب ووجد وتبريح ، فانظروا أي نعم وترف
وتدلل !

يبقى أن نلتقي بالقصيدة التي شاعت شهرتها منسوبة إلى
يزيد ، وأن نشبع فضولنا بالتعرف على أبياتها الجميلة ، ذات
العاطفة الرقيقة المترفة ، عاطفة أبناء القصور ، وأصحاب
الترف والنعم ..

يقول يزيد بن معاوية :

نالت على يديها ما لم تنله يدي
نقشاً على معصم أوهت به جلكدري^(١)
كانه 'طرق' نملٍ في أناملها
أو روضة رصّعتُها السحب بالبرد^(٢)

(١) أوهت به جلكدي : أضمت قدزني على التحمل .

(٢) الأنامل : جمع أنملة : طرف الإصبع أو رأس الإصبع . البرد :
ماء الغمام يتجمد في الهواء البارد ويسقط على الأرض في صورة حبات .

وقوسٌ حاجبها من كلِّ ناحية
 ونَبْلٌ مقلتها ترمي به كبدي (١)
 مدّت مواشطها في كفها شركاً
 تصيد قلبي به من داخل الجسد
 أنيسةٌ لو رأتها الشمس ما طلعت
 من بعد رؤيتها يوماً على أحدٍ
 سألتها الوصلَ قالت : لا 'تفرُّ بنا
 مَنْ رام منّا وصلاً مات بالكدر
 فكم قتيلٍ لنا بالحب مات جوى
 من الغرام ، ولم يُبدىء ولم يُعيد
 فقلتُ : أستغفر الرحمن من زللٍ
 إنَّ الحب قليل الصبر والجَلَدِ
 قد خلّفتني طريحاً وهي قائمة :
 تأمّتوا كيف فِعْلُ الظبي بالأسدِ (٢)
 قالت لطيفٍ خيالٍ زارني ومضى :
 بالله صفه ، ولا تنقص ولا تزد

(١) النبل : السهام .

(٢) الظبي : الغزال .

فقال : خلقتُ له لو ماتَ من ظمأٍ
وقلت : قف عن ورود الماء ، لم يَرِدْ !
قالت : « صدقت » الوفا في الحب شيمته »
يا بَرْدَ ذاك الذي قالت على كبدي !^(١)
واسترجعت سألت عني ، فقيل لها :
ما فيه من رَمَقٍ ، دقتُ يداً بيدٍ
وأمرت لؤلؤاً من نرجسٍ ، وسقت
ورداً ، وعضت على العناب بالبرَدِ^(٢)
وأنشدت بلسان الحال قائلةً
من غير كُرمٍ ولا مَطلٍ ولا مددٍ^(٣)
والله ما حزنت أختٌ لفقد أخٍ
حزني عليه ، ولا أمٌ على ولدٍ
إن يحسدوني على موتي ، فوا أسفي
حق على الموت لا أخلو من الحسدِ

(١) شيمته : خلقه وطبيعته .

(٢) العناب : واحدته عنسابة ، فاكهة من فصيلة النبقيات ، تشبه حبة الزيتون ، وأجوده الأحمر الحلو . والمقصود به شفتا الحبيبة . أما البرَدُ فالمقصود به أسنانها الناصعة البيضاء .

(٣) المطل : التسويف والتأخير .

(فوز)

للعباس بن الأحنف

من أجل ما يروونه عنه أنه خرج مع الرشيد ذات مرة
إلى خراسان ، وكان الرشيد قد وعده أنه لن يغيب عن أهله
في بغداد ، لكن الغياب طال ، فاشتد به الشوق إلى أهله ،
واحتال هو بأبيات تصل إلى سمع الرشيد لعله يأمر له بالعودة:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا
ثمّ القُفُولُ ، فقد جئنا خراسانا
مقّى يكون الذي أرجو وآمله
أما الذي كنت أخشاه فقد كانا
ما أقدر الله أن يديني - على شَحَطٍ -
جيران دجلة من جيران « جيحانا » (١)

(١) ويرى البيت أيضاً : سكان دجلة من سكان جيحانا .

يا ليت من نتعنى عند خلوتنا
إذا خلا خلوة يوماً تمنا
وتصل الأبيات إلى جمع الرشيد ، فيتأثر بها غاية التأثر ،
ويأذن لشاعره العباس بن الأحنف بالعودة إلى بغداد ..

رواية أخرى طريفة حكاهما المسعودي في كتابه « مروج
الذهب » عن جماعة من أهل البصرة ، قال :

خرجنا نريد الحج ، فلما كنا ببعض الطريق ، إذا غلام
واقف على المحجة وهو ينادي : أيها الناس ، هل فيكم أحد من
أهل البصرة ؟ قال : فعدلنا إليه ، وقلنا له : ما تريد ؟

قال : إن مولاي لما به يريد أن يوصيكم . فلنا معه ، فإذا
شخصٌ ملقى على بطن تحت شجرة لا يحير جواباً ، فجلسنا
حولَه فأحسن بنا ، فرفع رأسه وهو لا يكاد يرفعه ضعفاً ،
وأنشأ يقول :

يا غريب الدارِ عن وطنه
مفرداً يبكي على شجنه
كلما جدَّ البكاء به
دبت الأسقام في بدنه

ثم أغمى عليه طويلاً ، فبينما نحن جلوس حوله إذ أقبل
طائر فوق على الشجرة وجعل يغرد ، ففتح عينيه وجعل
يسمع تغريد الطائر ثم أنشأ يقول :

ولقد زاد الفؤاد شجاً
طائرٌ يبكي على فتنه
شفه ما شفني ، فبكي
كلنا يبكي على سكه !

قال : ثم تنفس نفساً فاضت نفسه منه ، فلم نهرج من عنده
حتى غسلناه وكفناه وتوليناه الصلاة عليه ، فلما فرغنا من دفنه
سألنا الغلام عنه فقال هذا العباس بن الأحنف .

* * *

فإذا تركنا هذه الروايات عن العباس وما أكثرها ، وانتقلنا
إلى ديوان شعره لفت نظرنا أنه ديوان كامل من شعر الحب ،
لا مكان فيه لأي غرض آخر من الأغراض التقليدية التي كانت
مألوفة في شعرنا العربي القديم ، إنه شاعر لا يمدح ولا يهجو
ولا يرثي ولا يفخر ، هو شاعر عاشق ، وعاشق فحسب ،
شهد له البحاري بأنه أغزل الشعراء ، وقصائده في حبيبته
فوز تنطق بعاطفة صادقة ، وشاعرية أصيلة ، ولغة شعرية
عذبة سائغة لا تكلف فيها ولا تصنع ، تنساب إلى الناس
رقبة صافية ..

يقول العباس عن أميرته :

أميرتي ، لا تغفري ذنبي
فإن ذنبي شدة الحب

حدثت قلبي دائماً عنكمو
حتى قد استحييت من قلبي

ويصف زمن العاشق ، ووقع ساعاته وأيامه وشهوره في
في النفس ، فيقول :

اليوم 'مثل' المسام ، حتى أرى
وجهك ، والساعة كالشهر

ماذا علي أهلك أن لا يروا
عطراً ، وأنت العطر للعطر

أفسد قلبي شادن أحور
يسحر بالعينين والثغرين

لو كنت أدري أنه ساحر
علقت تعويذاً من السحر

ويبدع حين تصطرع في نفسه رغائب الحب وشهواته مع
ما ينبغي له من تعفف ووقار ، فيقول عن النظر الفاسق :

أتأذنون لصبيّ في زيارتكم
فمندیكم شهوات السمع والبصر
لا يضر السوء إن طال الجلوس به
عفّ الضمير ولكن فاسق النظر
ويقول العباس بن الأحنف عن العصيان الجميل ، العصيان
بالحب ؛

أستغفر الله إلاّ من مودتكم
فإنها حسناتي يوم ألقاه
فإن زعمت بأن الحب معصية
فالحب أحسن ما يُعصى به الله !

يلفت النظر في شعر العباس بن الأحنف موسيقاه الآسرة ،
وإذا كان القدماء قد وصفوا الأعشى بأنه صنّاجة العرب ،
فإن العباس جدير بأن يسمّى صنّاجة الشعر العربي في العصر
العباسي كله ، لما تميّز به شعره من إيقاعات موسيقية عذبة
مطرّدة ، وأجراس حلوة متناغمة وسلاسة تجعل لشعره وقعا
طيباً في النفس والعقل معاً ..

ثم يلفت النظر في شعره أيضاً ، هذه الشخصية الموصلة
الطريفة ، شخصية الشاعر ، وهي دائمة الحوار والأخذ والرد ،

والقصص والسرد ، والتذكير - خلال القصائد - بأحداث
مضت وذاكرات وقعت وأيام تقضت ، مما يضيف على هذه
القصائد جواً واقعياً ، وإطاراً من الصدق ، يجعل النفس أكثر
تقبلاً لها وانفتاحاً عليها ، وهو في قصائد حبه جميعها دائم
التصريح بالشكوى ، دائم الأمل في الوصال ، دائم الاستعطاف
عن ذنب لا يدريه ، دائم الحديث عن كتمان لم يستطعه ،
فذاق الحب وشاع وتناقضته الوشاة والحواسد ..

وواضح من سيرة العباس بن الأحنف أنه رافق هارون
الرشيد في حملاته على خراسان وأرمينيا ، وأنه كان رفيق
الحاشية لطيف الطباع ، مفطوراً على الحب والغزل ، حتى لقد
جعل شعره كله قصيدة حب متصلة ، وتقول كتب التراث إنه
توفي سنة مائة واثنتين وتسعين من الهجرة وقيل بل سنة مائة
وأربع وتسعين ، وإن يوم وفاته كان يوم وفاة إبراهيم الموصلي
نديم الخلفاء والكسائي النحوي المعروف وهشيمة بن الحسار
فلما رفع الأمر إلى الرشيد أمر المأمون أن يصلي عليهم ، فأمر
المأمون بتقديم العباس بن الأحنف ليصلي عليه أولاً ، فلما سئل
عن سبب تقديمه له على الآخرين أنشد المأمون من شعره :

وسمى بها ناس فقالوا إنها
هي التي تشقى بها وتكابد
فجحدتهم ليكون غيرك ظنهم
إني ليمجيني الحب الجاحد

ثم قال : أليس من قال هذا الشعر أولى بالتقدمة ؟

والآن مع قصيدته « فوز » :

فوز

ألم تعلمي يا « فوز » أني معذب
بحبكم ، والحين للمرء يجلب^(١)
وقد كنت أبكيكم بيثرب مرة^(٢)
وكانت مني نفسي من الأرض يثرب^(٢)
أو ملكم حق إذا ما رجعتو
أتاني صدود^(٢) منكرو وتجنب
فإن ساءكم ما بي من الصبر ، فارحموا
وإن سركم هذا العذاب ، فعذبوا
فأصبحت فيما كان بيني وبينكم
أحدث^(٢) عنكم من لقيت فيعجب

(١) الحين : الهلاك .

(٢) يثرب : الاسم القديم للمدينة المنورة .

وقد قال لي ناس تحمل دلالها
 فكل صديق سوف يرضى ويفض
 وإني لأقل بذل غيرك فاعلمي
 وبخلك في صدري ألد وأطيب (١)
 فإني أرى من أهل بيتك نِسوة
 شبن لنا في الصدر نارا تلهب (٢)
 عرفن الهوى منّا فأصبحن حسدا
 يُخبرن عنا من يحيى وينهب
 وإني ابتلاني الله منكم بخادم
 يبلغكم عني الحديث ويكذب
 ولو أصبحت تسمى لتوصل بيننا
 سعدت، وأدركت الذي كنت أطلب
 وقد ظهرت أشياء منكم كثيرة
 وما كنت منكم مثلها أترقب

(١) أقل : أبغض وأكره . بذل غيرك : عطاء غيرك ووصاله .

(٢) شبن : أوقدن وأشعلن .

عرفت بما جرئتُ أشياء جثةً
ولا يعرف الأشياء إلا المُجربُ

* * *

ولي يوم شيعت الجنازة قصة
غداة بدا البدر الذي كان يحجب
أشرتُ إليها بالبنان فأعرضت
تبسمُ طَوَّراً ثم تزوي فتقطب (١)
غداة رأيتُ الهاشمية غدوةً
تهادى حواليتها من العين ورب (٢)
فلم أرَ يوماً كان أحسن منظراً
ولحن وقوف وهي تنأى وتندب (٣)
فلو علمت « فوز » بما كان بيننسا
لقد كان منها بعض ما كنت أرهب

(١) البنان : طرف الاصبع . تزوي فتقطب : تزوي ما بين حاجبيها
علامة الغضب والاستياء .

(٢) الربرب : القطيع أو السرب من بقر الوحش ، والمقصود به هنا
سرب من الحسان . العين : جمع عيناء ، وهي البقرة الوحشية (كانت
العرب تشبه الحسان بها بلالها) .

(٣) تنأى : تبعد .

ألا جعل الله الفدا حكمة
 « لفوز » المتى إنشئ بها لعذاب
 فما دونها في الناس للقلب مطلب
 ولا خلفها في الناس للقلب مذهب (١)
 وإن تلك « فوز » باعدتنا وأعرضت
 وأصبح باقي حبيلها يتقضب (٢)
 وحالت عن العهد الذي كان بيننا
 وصارت إلى غير الذي كنت أحسب (٣)
 وهما عليها ما ألقى فربما
 يكون التلاقي والقلوب تقلب (٤)
 ولكنني والخالق الباري الذي
 يزار له البيت العتيق المحجب
 لأستمسكن بالود ما ذر شارق
 وما تاح قمرى وما لاح كوكب (٥)

(١) مذهب : سبيل أو مذهب .

(٢) يتقضب : يتقطع . حبيلها يتقضب : أي يذهب ما بيني وبينها
من ود وعبة .

(٣) حالت : تغيرت وتبدلت .

(٤) تقلب : تتغير وتبديل من حال إلى حال .

(٥) ذر : بزغ ولمع ولاح . شارق : أي لجسم في السماء . قمرى :
نوع من الحمام حسن الصوت .

وأبكي على فوز بعين سخيئة
وإن زهدت فينا ، نقول : سترغب^(١)
ولو أن لي من مطلع الشمس بكرة
إلى حيث تهوى بالعشي فتغرب
أحيط به ملكاً ، لما كان عِدْها
لعمرك .. إني بالفتاة لمعجب^(٢)

وقد استطاعت الشاعرة العراقية الدكتورة عاتكة الخزرجي - في رسالتها للدكتوراه عن العباس بن الأحنف - أن تكشف النقاب عن سرّ محبوبته فوز ، وأن تثبت أنها غُلية بنت المهدي أخت هارون الرشيد ، وأن العباس لم يستطع أن يبوح باسمها في شعره ، فرمز لها باسم «فوز» .

- (١) سخيئة : الباكية بالدموع الحارة .
(٢) عدلها : كلوا لها وماوياً لقيتها ومعبراً عن تقديري وإعزازي لها .

[وحيد المغنية]

لابن الرومي

وهذه مغنية خلدها شاعر .

أما المغنية فهي « وحيد » أشهر مغنيات العصر العباسي وأبعدهن صيتاً وأكثرهن جالاً وفتنة ، اجتمع لها الصوت الرخيم والحسن البديع ، فتمت صورتها على أحسن وجه لمن يرى ولمن يسمع ..

وأما الشاعر فهو ابن الرومي ، أشهر شعراء العصر العباسي كله ، وإن يكن أقل الشعراء حظاً من عناية التاريخ الأدبي وإنصاف النقاد والدارسين قدامى ومحدثين ، حتى كان الكتاب الذي ألّفه عنه الأديب الراحل عباس محمود العقاد دراسة منهجية نفسية جامعة ، وضّعت في مكانه من مسيرة الشعر العربي ، وأنصفته من عنّت التاريخ وتجاهل المتأدّبين .

وصلت لنا صورة ابن الرومي — الشاعر الفذ — في إطار من لوحاته الشعرية البارة وقصائده الممتلئة فناً ذكياً وحياء

متدفقة ، وكان أقصى ما تقوله عنه كتب الأدب إنه شاعر
هجاء لم يسلم أحد من لسانه ، برع في وصف الأمور الدنيا
للحياة وشؤونها السوقية ، ألا ترون ابن المعتز - الخليفة
الشاعر - وهو يصف الهلال بأنه زورق من فضة قد أثقلته
حمولة من عنبر ، بينما يقنع ابن الرومي بوصف خباز يتفنن في
صنع رفاقته على النار :

ما بين رؤيتها في كفه كرة
وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة
في صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

ويروى البيت الثاني على هذه الصورة أيضاً :

إلا بمقدار ما تنداح دائرة
في لجة الماء يلقي فيه بالحجر

ولهذا ، فقد بقي ديوان ابن الرومي حتى يومنا هذا ، في
صورته الكاملة ، شبه مفقود أو مفتقد ، اللهم إلا بضعة فصول
منه حققها ونشرها الأديب الراحل كامل كيلاني ، بالرغم من
أنه - كما يقول الرواة - أطول ديوان محفوظ في الشعر العربي
كله ، لكن إهمال القدماء له وحنقهم عليه وضيقهم بهجائه
المقذع - الذي يحتل مساحة غير يسيرة من الديوان - فضلاً
عن أن نسخة الديوان الكاملة لم تكن ميسورة في بعض البلاد

العربية التي كان لها قصب السبق في إعادة طبع بعض الدواوين وتحقيقتها - كل ذلك جعل شعره غير مجموع بين أيدينا حتى اليوم .

يقول ابن خلكان يصف ابن الرومي ويقسده : « هو صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب ، يفوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكانها ويبرزها في أحسن صورة ، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ولا يترك فيه بقية » .

ويقول عنه العقاد : « الطبيعة الفنية هي الطبيعة التي بها يقظة بيئة للإحساس بجوانب الحياة المختلفة . وتنام هذه الطبيعة أن تكون حياة الشاعر وفنه شيئاً واحداً لا ينفصل فيه الإنسان الحي عن الإنسان الناظم ، وأن يكون موضوع حياته هو موضوع شعره وموضوع شعره هو موضوع حياته ، فديوانه هو ترجمة باطنية لنفسه يخفي فيها ذكر الأماكن والأزمان ولا يخفي فيها ذكر خالجة ولا هاجسة مما تتألف منه حياة الإنسان .

ثم يقول :

« وابن الرومي واحد من أولئك الشعراء القليلين الذين ظفروا من الطبيعة الفنية بأوفى نصيب . فمن عرف ابن الرومي الإنسان حق عرفانه ولم ينقصه منه إلا الفضول ، والغريب مع هذا أن ابن الرومي الشاعر هو ابن الرومي الذي لم يعرف

بعد وإن عُرفت له مزايا وثالث حسنات له حقها من الإعجاب .

* * *

وُلد أبو الحسن علي بن العباسي بن جريج الرومي سنة إحدى وعشرين ومائتين من الهجرة ، من أصل رومي غير عربي ، فجدّه جريج أو جورجيس : يوناني ، وأمه من أصل فارسي ، أما أبوه فقد مات عنه وهو حدث صغير .

ويقولون إن حياته اكتنفها الشقاء واليأس والهم من كل جانب ، فقد رزق ابن الرومي ثلاثة أبناء ماتوا جميعاً في طفولتهم ، وورثهم بأبلغ وأفجع ما رثى به والد أبنائه ، ثم لحقت بهم زوجته فتعمّت بها مصائبه وأحزانه .

والذين يحاولون أن يقدموا له صورة وصفية يقولون إنه كان صغير الرأس مستدير أعلاه ، أبيض الوجهه يخالط لونه شحوب في بعض الأحيان وتغيّر ، ساهم النظرة ، بادياً عليه وجوم وحيرة .. نحسلاً ، أقرب إلى الطول ، كث اللحية ، بادر إليه الصلع والشيب في شبابه ، وأدركته الشيخوخة الباكرة فاعتلّ جسمه وضعف نظره وسمعته ، ثم ما لبث - في شيخوخته - أن تبدلت ملامحه وتقوم ظهره ولحق به ما لا بد أن يلحق بثله من تغيير نتيجة الأسقام والهموم وقوالي الهن .

ويؤخذ من الروايات الموثوق بها أنه توفي سنة أربع وثمانين ومائتين من الهجرة ، وأنه أدرك في حياته ثمانية خلفاء من بني العباس هم : الواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد الذي توفي بعد ابن الرومي ببضع سنوات. والمتصفح لأشعار ابن الرومي - وما أكثرها وأحفلها بسمات العبقرية والتفنن - يدرك على الفور أنه كان شاعراً محباً للحياة ، منغمساً في ظواهرها وجوهرها ، ملتقطاً لكل ما فيها من صور وأشكال ، مشغولاً لمعانيها ومدرَكاتها ، وكانت عبادة الجمال - وهو أسمى تعبير عن الحياة - دأبه وديدنه .

* * *

هذا النهم بعبادة الجمال ، وحب الحياة ، هو الذي جعله يهوى مغنية عصره الذائعة الصيت ، الفاتنة الجمال ، ويهيم بها ورجداً وعشقا ، وترتجف بهذا الحب ريشته الساحرة الملهمة ، فيفتن في رسم لوحته الشعرية الفريدة عن « وحيد » .

والقصيدة واحدة من عيون قصائده، تنطق بقدرته الخارقة على التصوير والتجسيم والتجسيد ، والاستقصاء البارع اليقظ في تناول أدق التفاصيل ، وذائنته المتفردة كشاعر ، تلك التي تتفجر بها كلماته وموسيقاه وقوافيه .

ويصل ابن الرومي إلى ذروة الإبداع الشعري عندما يرسم بريشته المقتدرة صورة وصفية لوحيد وهي تغنسي ، هنا نجد

لوناً من التناول الشعري لا مثيل له في شعرنا العربي كله ،
بينما يرسم الشاعر العاشق كل خالجة من خواجها وكل حركة
من حركاتها الصوتية هدوءاً وانطلاقاً ، بسطاً وقبضاً .

وفي ختام هذه اللوحة الشعرية الفاقنة ، يكشف ابن الرومي
النقاب عن مدى حبه لوحيد ، وعمق تعلقه بها ، فهو لا يستمع
لنصيح يلومه في هواها ، بعد أن تملكه هذا الهوى وسد عليه
كل الاتجاهات والأبعاد ؛ عن يمينه وعن شماله وقدامه وخلفه ..
فأين منه المفر ؟

إنه حب من طراز فريد .. فهو حب دائم التجدد ،
دائم المنح والعطاء .

* * *

يقول ابن الرومي :

نار المحسن :

يا خليلي ، تيمنتني وحيب
ففؤادي بهسا معنشي عميد^(١)

(١) تيمنتني : ملكتني وأسرتني بحبها . المعنشي : الذي يكلف بهسا
لا قبل له به . العميد : من هداه العشق وأضاه الحب .

غادة^(١) زانها من الفصن قد^(٢)
ومن الظبي مقلتان^(٣) وجيد^(٤)
وزها ما من فرعها ومن الحد^(٥)
ين ، ذاك السواد والتوريد^(٦)
أوقد الحسن ناره في وحيد^(٧)
فوق خد ما شانه^(٨) تحديد^(٩)
فهي برد^(١٠) بخدها وسلام^(١١)
وهي للعاشقين جبه^(١٢) جهيد^(١٣)
لم تضر^(١٤) قط وجهها وهو ماء^(١٥)
وتذيب^(١٦) القلوب وهي حديد^(١٧)
ما لما تصطليه من وجنتها
غير ترشاف ريقها تبريد^(١٨)
مثل^(١٩) ذاك الرضاب أطفأ ذاك الـ
وجد^(٢٠) ، لولا الإماء^(٢١) والتصريد^(٢٢)

(١) القد : القوام . الجيد : العنق . مقلتان : عينان .

(٢) فرعها : شعرها . التوريد : الاحرار .

(٣) تحديد : اضطراب وتشنج ناتج عن الهزال .

(٤) لم تضر : لم تؤذ .

(٥) تصطليه : تعاني من حرارته .

(٦) التصريد : المعجز عن بنوخ الري لقله ما يرتوى به .

وصفاً وحيداً :

وغريرٍ بحسبها قال : صفها !
قلت : أماراتٍ ، هين وشديدٌ
يسهل القول إنها أحسنُ الأشياءِ
و 'طراً' ، ويعسرُ التحديد (١)
شمسٌ دجنٍ ، كلا المنيرين - من شم
سٍ وبدرٍ - من نورها يستفيد (٢)
تتجلى للناظرين إليها
فشقي بحسبها وسعيد
ظبية تكن القلوب وترعاً
ها ، وقرية لها تفريد (٣)

وحيد وهي تغني :

تتغنى ، كأنها لا تغني
من سكون الأوصال ، وهي تجيد

(١) 'طراً' : جميعاً .

(٢) دجن : ظلام .

(٣) 'قرية' : حامة حسنة الصوت .

لا تراها هناك ، تحفظ عين
 لك منها ، ولا يدرك ويريد^(١)
 من هدوء ، وليس فيه انقطاع
 وسُجُوء ، وما به تبليد^(٢)
 مد في شاور صوتها نفَسٌ كما
 في ، كأنفاس عاشقها مديد^(٣)
 وأرق الدلال والغنج منه
 وبراه الشجا ، فكاه يبيد^(٤)
 فتراه يموت طوَّراً ويحيى
 مستلذ بسيطه والنشيد
 فيه وشي ، وفيه حلبي من النغ
 سم مصوغ يختال فيه القصيد^(٥)
 طاب فوها وما ترجع فيه
 كل شيء لها بذاك شهيد^(٦)

-
- (١) يدرك الوريد : يتلى دماً نتيجة الجهد والشقة .
 (٢) السُجُوء : السكون واللبونة .
 (٣) شاور صوتها : قيمة صوتها وعظمته .
 (٤) الغنج : الدلال . الشجا : الحزن وانشغال البال .
 (٥) وشي : حلبي وتزيين .
 (٦) فوها : فيها . ترجع : تعيد التردد .

تَغَبُّ يَنْقَعُ الصدى ، وغناء
 عنده يوجد السرور الفريد^(١)
 فلها - الدهر - لائم مستزيد
 ولها - الدهر - سامع مستعيد
 في هوى مثلها يخف حليم
 راجح حلمه ، ويفوى رشيد^(٢)
 ما تعاطي القلوب إلا أصابت
 بهواما منهن حيث تريد
 وتز العزف في يديها مضاه
 وتَرَ الرَجْفَ فيه سهم شديد
 وإذا أنبضته للشرب يوماً
 أيقن القوم أنها تنصيد^(٣)
 « معبد » في الغناء وابن « سريج »
 وهي في الضرب « زلزل » و « عقيد »^(٤)

-
- (١) الثقب : القدير البارد المساء لم تصبه الشمس . ينقع الصدى :
 يبل العيش ويروي الظما .
 (٢) يخف : يطيش عقله .
 (٣) الشرب : جمع شارب . أنبضته : سدوته .
 (٤) معبد وابن سريج وزلزل وعقيد : من مشاهير الفنانين والعارفين
 في العصر العباسي .

عيبها أنها إذا غشتِ الأحرار
رَ ظَلُّوا وهمُ لديها عبيدُ
واستزادت قلوبهم من هواها
براقامها ، وما لديهم مزيد^(١)

التوحيد في الحب :

وحسان عرضن لي ، قلت : مهلاً
عن وحيد ، فحقها التوحيد
حسنها في العيون حسنٌ وحيدٌ
فلها في القلوب حبٌ وحيدٌ
ونصيح يلومني في هواها
ضلَّ عنه التوفيق والتسديد
لو رأى من يلوم فيه لأضحى
وهو لي المسترث والمستزيد
ضَلَّةٌ للفؤاد يحنو عليها
وهي تزهو - حياته - وتكيد^(٢)

(١) رقى : جمع رقية ، ما له تأثير السحر .

(٢) ضلة : منية وأمل .

سحرته بمقلتيهـــــــــــــــــا فأضحت
 عنده والذميم منهـــــــــــــــــا حيد
 'خلقت فتنة' ، غناءً وحسناً
 ما لها فيها جميعاً ندید^(١)
 فهي 'نعمى' ، يمیدُ منها كبيرُ
 وهي بلوى ، يشيب منها وليد^(٢)
 لي - حيث انصرفتُ منها - رفيقُ
 من هواها - وحيث حلّت قعيدُ
 عن يميني ، وعن شمالي ، وقُددُ
 مي وخلفي ، فأين عنه أحيـد
 سدّ شيطان حبّها كلُّ فجّ
 إن شيطان حبّها لمريد^(٣)

(١) ندید : مثل ونظير .

(٢) يمید : يزلزل ويهتز .

(٣) فجّ : طريق . مريد : الحبيث الشرير .

جهال صوت وصورة :

ليت شعري إذا أدام إليها
كرّة الطرف ، مبدىء ومُعبد^(١)

أهي شيء لا تسأم العين منه ؟
أم لها كل ساعة تجديد

بل هي العيش لا يزال متى استه
رض يُعطي غرائباً ويفيـــــد

منظره ، مسمع ، معانٍ من اللّه
ور ، عتاد^(٢) لما يحبّ عتيد^(٢)

لا يدبّ الملل فيها ، ولا ينقـ
ض من تعقّد سحرها توكيد

حسنها في العيون حسنٌ جديد
فلها في القلوب حبٌّ جديد

(١) كرتة الطرف : إعادة النظر والتأمل .

(٢) عتاد : زخيرة ومتاع .

شكوى واستعطاف :

أخذ الدهر يسا وحيد لقلبي
منك ، ما يأخذ المذيل المعيد ^(١)
حظ غيري من واصلكم قرّة العي
ن ، وحظي البكاء والتسويد
غير أني مُعلل منك نفسي
بعيدات خلاهن وعيسد ^(٢)
ما تزالين نظرة منك موت
لي ميت ، ونظرة تخليد
تتلاقى ، فلحظة منك وعد
بوصال ، ولحظة تهديد
قد تركت الصبح مرضى بميد
نّ نحولاً ، وأنت خوط بيد ^(٣)

(١) اللذيل : القبر المقلب الأسوال .

(٢) عدات : جمع عدة ، وعد أو أمنية .

(٣) خوط : الفصن الناعم .

والهوى لا يزال فيه ضعيف
 بين الحاظيه صريع^(١) جليد
 ضافني حبك الغريب ، فالوى
 بالرقاد النسيب^(٢) ، فهو طريد^(٣)
 عجباً لي ، إن الغريب مقيم
 بين جنبي^(٤) ، والنسيب شريد
 قد مللنا من ستر شيء مريح
 نشتهيه ، فهل له تجويد^(٥) !
 هو في القلب ، وهو أبعد من نج
 الثريّا ، فهو القريب البعيد !

* * *

-
- (١) جليد : ذو صلابه وجلند .
 (٢) ضافني : أمالني واستهدفتني . ألقى به : ذهب به وعصف به .
 (٣) تجريد : انكشاف وظهور .

أراك عصي الدمع

لأبي فراس الحمداني

وهذا نموذج للشعر العربي الأصيل إذا ما صدر عن وجدان عاشق فارس ، يعتز بنسبه العربي العريق ، الذي ينتهي إلى قبيلة « تغلب » العربية التي اشتهرت بالنخوة والفروسة ، وتسري في عروقه دماء عربية أصيلة جعلته دائم الفخر والاعتزاز بنفسه ومكانته ، ولم لا ؟ ، وهو الشاعر الفارس الأمير وابن عم الأمير سيف الدولة أمير حلب ، أشهر أمير عربي خلّده شاعر العربية الكبير « المتنبي » في سيفياته التي قالها وهو في جواره ، يصف وقائع ، ويسجل أحداث زمانه .

ذلك هو أبو فراس الحمداني ، وُلد بالموصل سنة تسعمائة واثنتين وثلاثين ميلادية ، وقتل أبوه وهو طفل صغير ، فرباه ابن عمه وزوج أخته سيف الدولة ، وهو الفارس الأديب ، فنشأ أبو فراس على الفروسية والأدب ، ثم قلده سيف الدولة الإمارة

على «منبج وحران» وأعمالها وهو في السادسة عشرة من عمره واصطحبه معه في معاركه ، وما كان أكثرها ، مع الروم الطامعين في الوطن العربي الذي تفتت وانقسم بالتحلل الدولة العباسية وانقسامها على نفسها إلى إمارات ومناطق نفوذ . وقدّر لدولة الحمدانيين ولسيف الدولة أن يكونا القلعة الوحيدة الصامدة في وجه الدولة البيزنطية ، وأن يكونا الدرع الواقية للشعور العربية في مواجهة أعظم دول ذلك الزمن .

ويؤسّر أبو فراس في إحدى معارك سيف الدولة مع الروم ، وينقله الروم إلى القسطنطينية ، ويظلّ في الأسر أربع سنوات ، ويقال بل هي سبع سنوات ، وتوالت رسائله لسيف الدولة ، وقصائده الباكية المستعطفة يطلب فيها مفاداته . ويختلف المؤرخون في سبب بطل سيف الدولة وتراخيه في مفاداته . يقول البعض هي شواغله ومسؤولياته والأحداث المتتالية التي مرت بها حلب ، والبعض الآخر يحاول أن يوحى بأنه كانت هناك منافسة خفية بينه وبين سيف الدولة ، وأن سيف الدولة كان يخشى على إمارته من ابن عمه ، وهو رأي لا تقوم عليه شواهد أو أدلة قوية ، وثمة من يقول إن بلاط سيف الدولة شهد مؤامرة دبرها بعض الخاقدين على أبي فراس أوغرت صدر سيف الدولة عليه فلم يسرع إلى مفاداته ..

على أيّ ، لقد أطلق سراح أبي فراس بعد أن افتداه ابن عمه ، وولاه سيف الدولة إمارة حمص ، ثم مات بعد عا.

واحد . وفجأة قامت الحرب بين أبي فراس وأمير حلب
الجديد : أبي المعالي بن سيف الدولة .. وابن أخت أبي فراس
نفسه .. وتنتهي الحرب بمقتل أبي فراس قرب حمص سنة
تسعمائة وثمانين وستين ، وينتهي معها طموحه وفخره
وفروسيته ..

* * *

ولأبي فراس ديوان من الشعر القوي الجزل، العذب الأنغام،
الصادق العاطفة والتصوير ، يسجل فيه تاريخ حياته ويصور
فروسيته ويفخر بمآثر أسرته ، ويثني على سيف الدولة
والعلويين .. ومن بين قصائد هذا الديوان اشتهرت رومياته
أي القصائد التي قالها وهو في الأسر، وهي تكشف عن مدى
شكواه وعمق حزنه وورثائه لأقربائه الذين فقدهم أثناء الأسر
والغياب عن الوطن خاصة أمه .

لكن قصيدة من قصائد أبي فراس يتاح لها من الذبوع
والشهرة ما لا يتاح لبقية قصائده ، تلك هي مطوّلته « أراك
عصي الدمع » التي تصوّر أدق تصوير وجدان هذا الشاعر
الفارس، الذي يذوب رقة وعاطفة ولكن في اعتزاز وشموخ ،
ومن خلال نفس أبيّة ترفض كلّ ذلة ، ولا تعرف إلا الإباء
والجرأة والإقدام . فالشاعر الذي يذوب وجداً وهياماً في
مواقف الحب والصبابة ، لا يحني رأسه ، ولا يدوس على
كرامته ، لكنه دائماً شامخ أبي ، شأنه في حروبه ومعاركه

مع الخصوم والأعداء .. هذه القصيدة التي اشتهرت عندما
دخلت ساحة الفناء العربي، ورددتها الألوف ، معجبةً بماطفة
الشاعر الفارس ، وكبريائه وشمعه ، وفنه الشعري المقتدر ،
وصياغته العذبة القوية .. هي التي سنتوقف عندها الآن ،
قراءةً وتذوقاً وتأملًا ..

* * *

يقول أبو فراس الحمداني ..

استهلال وتقديم :

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر^(١)
أما للهوى نهي عليك ولا أمر^(٢)
بلى ، أنا مشتاقٌ وعندى لوعة^(٣)
ولكن مثلي لا يذاع له سر^(٤)
إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى
وأذلت دمعاً من خلائقه الكبير^(٥)

(١) شيمتك : طبيعتك وخلقتك .

(٢) أضواني : عذبني وشجاني . خلائقه : جمع خليقة وهي الطبع
والصفة الميزة .

تكاد تضيء النار بين جوانحي
إذا هي أذكتها الصبابة والفكر^(١)
معلّقي بالوصل والموت دونـه
إذا بت ظمآنًا فلا نزل القطر^(٢)
حفظت وضيعت المودة بيننا
وأحسن من بعض الوفاء لك الغدر
وما هذه الأيام إلا صحائف
لأحرفها ، من كفا كاتبها ، بشر^(٣)

هي والوشاة :

بنفسي من القادين في الحي غادة
هواي لها ذنب ، وبهجتها عذر
تروغ إلى الواشين في ، وإن لي
لأذئابها عن كل واشية وقر^(٣)

(١) أذكتها : أشعلتها .

(٢) معلّقي بالوصل : من تبسط لي الآمال في الوصل . القطر : المطر .

(٣) تروغ : غيل وتشمع . وقر : صمم .

بدوّتُ وأهلي حاضرون ، لأنني
أرى أن داراً لست من أهلها قفر^(١)
وحاربتُ قومي في هواك ، ولأنهم
ولايائي ، لولا حبك ، الماء والخمر
فإن يك ما قال الوشاة ولم يكن
فقد يهدم الإيمان ما شئت الكفر

بين الشاعر والحبيبة :

وفيتُ وفي بعض الوفاء مذلة^٢
لإنسانةٍ في الحي شيمتها القدر^(٢)
وقور^٣ ، وربعان الصبا يستفزها
فتأرنُ أحياناً كما أرنَ المهر^(٣)

(١) بدوت وأهلي حاضرون : اختلفت حياتي عن حياة قومي ،
انصرفت عنهم وملت اليك .

(٢) شيمتها : طبيعتها وخلقتها .

ويرى البيت أيضاً : « لثانئة » في الحي شيمتها القدر .

(٣) أرن : نشط ومرح .

تسألني : مَنْ أنت ؟ وهي عليمة
وهل بفقّ مثلي على حاله "نكسر"
فقلت لها : لو شئت لم تتعشني
ولم تسألني عني ، وعندك بي خبر^(١)
فقلت : لقد أزرى بك الدهر بعدنا
فقلت : معاذ الله بل أنت لا الدهر^(٢)
وما كان للأحزان لولاك مسلك^٣
إلى القلب ، لكنّ الهوى للبلى جسر
وتهلك بين الهزل والجدّة مهجة^٤
إذا ما عداها البين عذّبها الهجر^(٣)
فأيقنتُ أن لا عزّ بعدي لعاشق
وأنّ يدي بما عقلتُ به صفر^(٤)
وقلّبتُ أمري لا أرى لي راحة^٥
إذا البين أنساني ألحّ بي الهجر

(١) التعتت : طلب الشقة .

١ (٢) أزرى به : هابه ووضع من قيمته ومنزلته .

(٣) البين : الفراق والبعد .

(٤) صفر : خاوية فارغة .

فعدت إلى حكم الزمان وحكمها
لها الذنب لا تجزى به ولي العذر

فخر واعتزاز بالنفس :

فلا تنكريني يا ابنة العم ، إنه
ليعرف من أنكرته البدو والحضر

ولا تنكريني ، إنني غير منكسر
إذا زلّت الأقدام ، واستنزل الذعر

وإني لجرار لكل كتيبة
معوّدة أن لا يخلّ بها النصر

وإني لنزال بكل خوف
كثير إلى نزالها النظر الشؤر^(١)

فأظما حق تروفي البيض والقنا
وأصعب حق يشبع الذئب والنسر^(٢)

ولا أصبح الحي الخوف بفارة
ولا الجيش ، ما لم تأته قبلي النذر

(١) النظر الشؤر : النظر بجانب العين مع الاعراض أو الغضب .

(٢) البيض : السيوف . القنا : الرماح . أصعب : أجوع .

ويا ربُّ دارٍ لم تخفني منيعه
طلعتُ عليها بالردى أنا والفجرُ
وحى رددت الخيل حتى ملكه
هزيماً ، وردتني البراقع والخُمر^(١)
وساحبة الأذيال نحوي لقيتها
فلم يلحقها جاني اللقاء ولا وعر
وهبتُ لها ما حازه الجيش كله
ورحت ولم يكشف لأبياتها سر
ولا راح يطغيني بأثوابه الفنى
ولا بات يثني عن الكرم الفقر^(٢)
وما حاجتي بالمال أبغي وفوره
إذا لم أصن عرضي فلا وفر الوفر

(١) الخمر : جمع « خمر » وهو غطاء الرأس للمرأة .

(٢) يثني : يرثي ويدقني .

قصة الأسر :

أسرتُ وما صعبى بعُزْلٍ لدى الوغى
ولا فرسي مهرٌ ولا ربُّه غُثْرُ (١)
ولكن إذا حُمّ القضاء على امرئٍ
فليس له بَرٌ يقيه ولا بحر
وقال أصيحابي : الفرار أو الردى ؟
فقلت : هما أمان أحلاهما مرٌ
ولكنني أمضي لما لا يعيبي
وحسبك من أمرين خيرهما الأسر
يقولون لي ربت السلامة بالردى
فقلت : أما والله ، ما تألني خسر
وهل يتجافى عني الموت ساعة
إذا ما تجافى عني الأسر والضر ؟
هو الموت فاختر ما علا لك ذكره
فلم يمت الإنسان ما حيي الذكر

(١) العُزْل : جمع أعزل ، الذي لا سلاح معه . الغُثْر : الجامل ،
غير المحرب .

ولا خسير في دفع الردى بمذلة
صكبا ردها يوماً بسوءته عمرو (١)
ينثون أن خلثوا ثيابي ، وإنما
عليّ ثياب من دماهمو حمز
وقائم سيف فيهمو اندق نصله
وأعقاب رمح فيه قد حطّم الصدر

عودة إلى الفخر :

سيدكرني قومي. إذا جدّ جدّهم
وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر
فإن عشت ، فالطعن الذي يعرفونه
وتلك القنا والبيض والضمّر الشقر (٢)
وإن مت فالإنسان لا بد ميّت
وإن طالت الأيام وانفسح العمر (٣)

(١) السوءة : القملة القبيحة التي تجلب المذلة والعار .

(٢) القنا : الرماح . البيض : السيوف . الضمّر الشقر : الجياد الضامرة الشقراء اللون ، كناية عن سرعتها الفائقة وكرم عنصرها .

(٣) انفسح العمر : امتدّ الأجل .

ولو سدّ غيري ما سددت اكتفوا به
وما كان يفلو التّبر لو نفق الصفر^(١)
ونحن أناس لا توسّط بيننا
لنا الصدر دون العالمين أو القبر^(٢)
تهون علينا في المعالي نفوسنا
ومن يخطب الحسناء لم يغلبها المهر .
أعزّ بني الدنيا وأعلي ذوي العلا
وأكرم من فوق التراب ولا فخر^(٣)

* * *

(١) التبر : الذهب . الصفر : النحاس .

(٢) الصدر : الصدارة والرئاسة والسيادة .

(٣) من فوق التراب : الناس جميعاً .

يا ظبيسة البسان

للشريف الرضي

لا يذكر الشريف الرضي إلا ويسرع إلى البال قوله :

ولقد مررتُ على ديارهمو
وطلولها بيد البلى تنهبُ

فوقفت حق ضجُّ من كَلَبِ
نِضْوِي ، ولجُّ بعدلي الركب

وتلفست عيني ، قد خفيت
عني الطلول تلفت القلب

ويستحضر الخيال هذه الصورة الفريدة في شعراء العرب
القديم ، صورة من يمرّ على آثار أحبائه بعد رحيلهم ، وتختفي
الطلول من أمام عينه ، ولا تستطيع العين أن تريا بعد
شيئاً ، هنا تلفت القلب ، فتمتد دائرة البصر ، ويبصر
القلب بعد أن عجزت العين .

والشريف الرضي أحد الأصوات الكبيرة في قافلة شعرنا
العربي ، صوت له تفردة وأصالته وتمايزه ، وله أيضاً جلاله
وجسالة وعذوبته وتدفقه ، واقتداره الفني الذي
يتكيء على حسن مرهف ، ووجدان ذكي ، وقلب كبير
متفتح .

تقول عنه كتب التراث إنه كان مهيباً بالغ الاعتداد
بشخصيته ، وكنيته أبو الحسن ، وقد سمي الشريف الرضي
لأنه كان نقيب الأشراف ، ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي
ابن أبي طالب ، وهو صاحب الفضائل الشائعة والمكارم
الذائعة . كما كانت تسند إليه إمارة الحج والمظالم ، حججاً بالناس
مرات ، وكان أحد علماء عصره في الدين واللغة والأدب .

ويقول عنه القدماء إنه أشعر قريش ، لأن المجيد منهم
ليس بكثير والمكثر ليس بمجيد ، أما هو فقد جمع بين الإكثار
والإجادة .

ونطالع في شعره ما يملؤنا يقيناً بأنه كان عزيز النفس
رفيع الهمة .. يقول مخاطباً القادر بالله الخليفة العباسي
(ولنضع في اعتبارنا أن الشريف الرضي كان نقيب الطالبين
نسبة إلى آل طالب المطالبين بالخلافة) :

عطفاً ، أمير المؤمنين ، فإننا
في دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت
أبدأ ، كلانا في المفاخر معرق
إلا الخلافة قدّمك ، فإنني
أنا عاطلٌ منها وأنت مطوّق

'ولد الشريف الرضي عام ثلاثمائة وتسعة وخمسين من
الهجرة ، وتوفي عام أربعمائة وستة . وخلال سنوات عمره
السبع والأربعين، ترك الشريف ديواناً شعرياً ضخماً في جزأين،
ومصنفات عدة ، أبرزها : المتشابه في القرآن . مجازات
الآثار النبوية . نهج البلاغة للإمام علي . تلخيص البيان عن
مجازات القرآن . الخصائص . الحسن من شعر الحسن (مختارات
من شعر ابن الحجاج) . أخبار قضاة بغداد . ورسائل الشريف
الرضي في ثلاثة مجلدات . وكتاب سيرة والده .

أما كيف ترك لنا نقيب الأشراف ، ونقيب الطالبين
الشريف الحسيني شعراً في الغزل كأرقّ وأعذب ما يكون
الشعر ، فهذا سؤال تكشف إجابته عن حقيقة هذا الشاعر
الكبير الذي لم يطمس النشاط الديني والشمعي شاعريته أو
فيه .. ولكأنني به يتفنن في إخفاء عواطفه ومشاعره
- حفاظاً على مكانته الدبلوماسية ومنزلته بين قومه - فيأبى

شعره إلا أن يفضحه ، ويكشف الخفي المستور من أسرارهِ
وهواجس نفسه ونبضات قلبه ، وإلا فكيف قدّر له أن
يقول عن حقيقة الشوق :

أقول - وقد أرسلتُ أول نظرة -
ولم أرَ من أهوى قريباً إلى جنبي
لئن كنتَ أخليتَ المكان الذي أرى
فهيئاتَ أن يخلو مكانك من قلبي
وكنتُ أظنُ الشوق للبعد وحده
ولم أدرك أن الشوق للبعد والقرب
خلا منك طرفي ، وامتلا منك خاطري
كأنك من عيني 'نقلت' إلى قلبي

وكيف استطاع أن يعبر عن « الحنين » في هذه الصورة
الشعرية الفريدة ، العذبة الصياغة ، الجميلة الجرس والأداء :

أحسنُ إلى لقائك كل يومٍ
وأسأل عن إيابك كل وقتٍ
وأذكر ما مضى ، فيفيض صبري
وتنفر عبرتي ، ويبوح صمتي
ولي قلب إذا ذكر التـلـلـاقـي
تظلم من يد البين المشت

بل كيف ذاب رقة ووجدأ حين قال :

يا مقلقي ، قلقي عليك
وأظنُّه ذنبي إليك

أنت الشفيق فلو جنب
ست ، لما أخذت على يديكا

أميتَ ثالث ناظري
فكيف أقنذى ناظريك

وكفـاك أني لست أعـد
سقدُ يختصري إلا عليك

والتأمل في شعر الشريف يلاحظ على الفور حرصه على
تأكيد معنى العفاف في غزليته ، وإن تكن رغبات نفسه
الدفينية وأشواقه الحري ، وعواطفه الجامحة المشبوبة ، تتنـزى
من خلال تحفظاته ، وكيف ينسى أنه أمير الحج وتقيب
الأشراف والقاضي الذي ينظر في المظالم والمرشح لإمارة
المؤمنين ... كيف ينسى هذا كله وهو ينقل إلينا مثلاً حديث
المضاجع فيقول :

خلونا فكانت عفة لا تعفف
وقد 'رفعت في الحي' منا الموانع

سلوا مضجعي عني وعنهما ، فإننا
رضينا بما يُخبرن عنا المضاجع

وُلد الشريف الرضي بعد وفاة أبي الطيب المتني بخمس
سنوات ، وتلقى دراساته الأولى على أيدي أساتذة شديدي
الإعجاب بالمتني ، ولم يشهد في صباه أو شبابه حلقة من حلقات
الدرس أو محفلاً من محافل الأدب إلا ولمس فيه الإعجاب
بالمتني والحديث عن شعره ، ومن هنا كان إعجابه الداخلي به ،
ومرسته لخطاه ، واقتفاؤه لآثاره ، ثم معارضاته لأشهر
قصائده ، ووقوعه على الكثير من معانيه وعباراته ، ولكن
في خفة وذكاء ورشاقة ، ودون أن يُتشم بالسرقه أو النقل .

بالإضافة إلى هذا ، يطالعنا في شعر الشريف أيضاً صياغة
نقية ، مصقولة ، خالية من الشوائب ، بريئة من التكلف ،
ويقول القدماء إنه كان عاكفاً على تهذيب شعره وتنخل ألفاظه
وصيانة ديباجته من عيوب التعبير أو سقطات اللغة أو ضحالة
المعاني وركاكة الصور وابتذالها . فجاء شعره - على كثرت -
مستوياً ، متماثل القمم والمرتفعات ، معبراً عن حياته المليئة
بالانفعالات والعواطف والمواقف المشحونة ، لذا كثر شعره في
الأنفسة والفروسية والطموح والتمدح بشرف الآباء والفخر
بأجداده العظام والشكوى والعتاب ، والحب والغزل ،
والبكاء على الأهل والأحبة ، ووصف تقلبات الزمان الى ذكرى

الحسين في مأساة عاشوراء ، إلى عاطفة الصداقة فيما كان بينه وبين أصدقائه من الإخوانيات العامرة الحارة .

ويكفيه فخراً، أنه من بين القلة القليلة من شعرائنا العرب، الذين لم يقبلوا المال من أحد ، ولا اتخذوا شعرهم وسيلة أو أداة للتكسب المادي ، فكانت علاقاته مع الخلفاء والملوك والأمراء علاقات ود وصداقة ، واحترام متبادل ، لذا فقد عرفت له عندهم حرمة وهيبة، ولقبوه بالرضي^١ ذي الحسينين.

والآن إلى قصيدته الرقيقة : يا ظبية البان .

يا ظبية البان

يا ظبيّة البان ، ترعى في خجائه
ليهنك اليوم أن القلب مرعاك^(١)
المساء عندك مبذول لشاربه
وليس يرويك إلا مدممي الباكي

(١) البان : شجر معتدل القوام ورقه ليّن كاصفصاف ، واحده البانة . ليهنك : ليهنك ، خفتت الحمزة .

هَبَّتْ لَنَا مِنْ رِيَّاحٍ « الْغُور » رَائِحَةٌ
بَعْدَ الرُّقُودِ عَرَفْنَاهَا بِرِيَّائِكَ (١)
ثُمَّ انْتَبَيْنَا إِذَا مَا هَزَّانَا طَرْبٌ
عَلَى الرَّحْصَالِ ، تَعَلَّنَا بِذِكْرِكَ
سَهْمِ أَصَابٍ ، وَرَامِيهِ بِذِي سَلَمٍ ،
مِنْ بِالْعِرَاقِ ، لَقَدْ أَبْعَدْتَ مَرَمَاكَ (٢)
حَكَمْتَ لِحَاضِكَ مَا فِي الرَّثَمِ مِنْ مَلَحٍ
يَوْمَ الْإِقَاءِ ، وَكَانَ الْفَضْلُ لِلْحَاكِي (٣)
كَأَنَّ طَرْفَكَ يَوْمَ « الْجَزَعِ » يُخْبِرُنَا
بِمَا طَوَى عَنْكَ مِنْ أَسْمَاءٍ قَتْلَاكَ (٤)
أَنْتَ النِّعَمِ لِقَلْبِي وَالْعَذَابِ لَهُ
فَمَا أَمْرَكَ فِي قَلْبِي وَأَحْلَاكَ
عِنْدِي رِسَائِلُ شَوْقٍ لَسْتُ أَذْكُرُهَا
لَوْلَا الرَّقِيبُ لَقَدْ بَلَّغْتُهَا فَاهُ

-
- (١) الغور : اسم موضع ، أو هو المنخفض من الأرض ، الريا :
الريح الطيبة .
(٢) بندي سلم : اسم موضع .
(٣) الحماظ : جمع لحظ ، باطن العين . الرثم : الظبي الأبيض .
حكمت : أشبهت .
(٤) طرفك : عينك . الجزع : اسم موضع .

وعد لعينيك عندي ما وفيت به
 يا قرب ما كذبت عيني عيناك
 سقى مني وليالي الخيف ما شربت
 من الغمام وحيثها وحيثك (١)
 إذ يلتقي كل ذي دين .. وماطله
 منا ، ويجتمع المشكوك والشاكي (٢)
 لما غدا السرب يعطو بين أرحلنا
 ما كان فيه غريم القلب إلاك (٣)
 هامت بك العين لم تتبع سواك هوى
 من أعلم العين أن القلب يهواك
 حق دنا البين ما أحييت من كد
 قتلى هواك ، ولا فاديت أسراك
 يا حبذا نفحة مرّت بفيك لنا
 ونطفة غمت فيها ثناياك (٤)

(١) الخيف : راد بين منى ومكة .

(٢) ماطله : مسوّفه ومؤجله .

(٣) السرب : سرب الأطباء ، أي الحسان . يعطو : يرفع رأسه ويديه . الأرحل : جمع رحل ، ما يوضع على الناقة ليمتطيه السافر .

(٤) النطفة : الماء الصافي أو الرحيق الرضاب .

وحبذا وقفة والركب معتقل
على ثرىّ رخذت فيه مطاياك^(١)
لو كانت اللمة السوداء من عدّدي
يوم الفمى ، لما أفلت^(٢) أشراكي^(٣)

-
- (١) معتقل : لا يستطيع السير لأث مطايا معتقلة ، أي مشدودة
الرأس الى الذراع . رخذت : سارت .
(٢) اللمة السوداء : الشعر الأسود ، كناية عن الشباب . الفمى :
راد بين الحرمين قرب مكة .
يقول : لو كان الشباب عدّة لي لما تركتك تفلتين من حبالي .

اليتيمة

لدوقلة المنبجي

طالعثها لأول مرة في أحد مجلدات مجلة « الحديقة » التي كان يصدرها منذ أكثر من نصف قرن العالم الراحل 'محب' الدين الخطيب .. وقد صُدّرت بهذه الكلمات : « القصيدة اليتيمة » نقلها العلامة الشيخ عبد العزيز المينني الراجكوتي من آخر نسخة مخطوطة من المقامات توجد في الهند . . واستوقفتني القصيدة ، ثم ما لبثت أن مَلَكْتُ عليّ نفسي ، وإن كان السؤال الملح وقتها عليّ : من هو دوقلة المنبجي هذا ، الذي تنسب إليه القصيدة اليتيمة ؟

وظللت بعد ذلك سنوات متصلة ، تطالعني - بين الحين والحين - أبيات من اليتيمة أجدها منتثرة هنا وهناك في أمهات كتب الأدب ، ومختارات الشعر العربي ، لكن العثور عليها كاملةً ظل شيئاً يشبه المستحيل ، خاصة - كما عرفتُ فيما بعد -

أن بالقصيدة مقاطع أضيفت إليها ، بفعل الروايات والنقل ،
بها ما يخذش الحياء ويخرج الذوق العام ..

لكن الذي لم يختلف عليه اثنان ، أن القصيدة من عيون
رائثنا الشعري .. وأن القدماء لما أدركوا جاهلها وروعيتها
وأصالتها وتفردتها أطلقوا عليها اسم « اليتيمة » أي التي
لا شبيه لها ولا نظير .

والطريف أن اليتيمة ظلت عصوراً طويلة مجهولة النسب ،
لا يُعرف اسم شاعرها الحقيقي .

فمن قائل هو الشاعر العباسي علي بن جبلة ، الذي قتله
المأمون في أول القرن الثاني الهجري ..

ومن قائل : هو أبو نواس ، الشاعر العباسي الكبير ، الذي
اشتهر بالخرجات والهجون ، وأصحاب هذا الرأي يؤكدون أن
القصيدة تحمل بصمات فنه وشاعريته .

ومن قائل : بل هو دوقلة المنبجي ، وهو شاعر لم تتحدث
عنه كتب الأدب ، ولا يُعرف له شعرٌ سواها . أما « منبج »
هذه التي ينتسب إليها الشاعر فهي بلدة بالشام نشأ فيها من
الشعراء : أبو تمام والبحتري وأبو فراس الحمداني وغيرهم من
أعلام الشعر والبيان . والطريف أيضاً أنهم اختلفوا في اسم
القصيدة :

فهي « اليتيمة » ، وهي « هند » ، وهي « دعد » ..

ثم جاء هذا الكشف عن مصدر القصيدة وحقيقة نسبتها وأصلها الكامل — كما نشرته مجلة الحديقة — ليحسم الأمر ، وينسب القصيدة إلى صاحبها ..

وهكذا لم تعد « اليتيمة » يتيمة النسب !

و « اليتيمة » تنطق بشاعرية شاعر أصيل مقتدر ، تفنن في وصف محبوبته « دعد » ، فلم يترك شيئاً منها ، إلا وقد وصفه أدق وصف وأجمله ، وكأنه يقدم صورة للجمال كما تعشقه العربي القديم ، وحتى ليخيل لقارئ القصيدة أنه يتأمل لوحة فائنة أبدعتها ريشة رسام مبدع .

رسم الشاعر في لوحته الفاتنة جسم محبوبته ، ووجهها ، وشعرها ، وجبينها ، وجيدها ، وزندها ، ومعصمها ، وغدائرها ، وكل نبضة من نبضاتها ، ولم يفتش أن يصف ذهوله وإطراقه أمام هذا المشهد الرائع من مشاهد الحب والجمال ، وأن يتحدث عن أنفته وعزته وكبريائه حين يعز عليه الوصال وكأنه بذلك يقدم لنا مثل الفارس العربي النبيل يذوب في هواه صبايةً ووجداً ، ولكنه يرفع عزّة وإباء وشموخاً ، ويحجل نفسه عن ارتكاب الدنايا والصفائر .

والقصيدة — رغم التزامها في بنائها العام للمنهج التقليدي

للقصيدة العربية بدءاً بالوقوف على الأطلال ثم الحديث عن موضوع الحب وصفاً وشكوى ووجداً ، ثم انتهاءً بالفخر بالنفس وتأكيد معنى العزة والنخوة — إلا أن ما ينسكب عليها من ماء الشعر يجعلها بالغة الرقة والعذوبة ، ويجعل لها مذاقاً خاصاً في وجدان المتلقي ينأى به عن تصورها حبيسة هذا البناء التقليدي ، بما تكشف عنه القصيدة من تصورات رغبة للخيال والحس العربي العاشق .

والآن إلى البيتمة :

وقوفٌ على الأطلال :

هل بالطلول لسائلٍ ردُّ
أم هل لها بتكلمٍ عهدٌ (١)
درّس الجديدُ ، جديدٌ معيها
فكأنما هي ربطة جرد (٢)

(١) الطلول : جمع طل ، هي ما يتخلف من الآثار والديار بعد زوالها .

(٢) درس : زال وأحس . معيها : ما عهد فيها من آثار الحياة والاقامة . ربطة جرد : أي مُلأة بالية أو ثوب مهترى .

من طول ما تبكي الغيوم على
 عرصاتهما ، ويقهقه الرعد^(١)
 وتلث^(٢) سارية^(٣) وغادية^(٤)
 ويكر^(٥) نحس^(٦) خلفه سعد^(٧)
 تلقاء^(٨) شامية^(٩) يمانية^(١٠)
 لها بموثر^(١١) ترايبها^(١٢) سرود^(١٣)
 فكست بواطنها ظواهرها
 نوراً كأن زهاء^(١٤) برد^(١٥)
 فوقفت^(١٦) أسألهاء^(١٧) وليس بها
 إلا^(١٨) المها^(١٩) ونفائق^(٢٠) ريد^(٢١)
 فتبادرت درر الشئون على
 خدّي كما يتناثر العقد^(٢٢)

-
- (١) عرصاتهما : ساحاتها .
 (٢) تلث : تدوم وتستمر أياماً . السارية والغادية : السحب المطيرة .
 (٣) موثر ترايبها : إثارة ترايبها وتحريكه بشدة . سرود : تتابع .
 الشامية واليانية : أسماء للسحاب المطر بحسب اتجاه قدرمه .
 (٤) الزهاء : النظرة . البرد : الثوب الخطط .
 (٥) المها : جمع مهاة ، وهي البقرة الوحشية . النفائق : جمع نفائق ؛
 ذكر النعام . ريد : لونها يختلط فيه السواد بكثرة .
 (٦) درر : جمع درة ؛ ما يدر من المطر واللين ، والمراد هنا يدرر
 الشئون : دموع العينين النهمرة .

صورة وصفية للمحبوبة :

لَهْفِي عَلَى « دَعْد » وَمَا حَفَلْتُ
بِالْأَبْحَرِ تَلَهْفِي « دَعْدُ »
بِيَضَاءٍ قَدْ لَبَسَ الْأَدِيمُ بِهِيَ
« الْحُسْنُ » فَهُوَ جِلْدُهَا رِجْلُهَا (١)
وَيَزِينُ فَوْدِيهَا إِذَا حَسَرْتُ
ضَافِي الْغَدَائِرِ فَاحِمٌ جَمْعُ (٢)
فَالْوَجْهَ مِثْلَ الصَّبْحِ مُبَيِّضُ
وَالشَّعْرَ مِثْلَ اللَّيْلِ مَسْوَدُ
ضِدَّانٍ لَمَّا اسْتَجْمَعَا حُسْنًا
وَالضِدُّ يُظَاهِرُ حُسْنَهُ الضِدُّ
وَكَأَنَّهَا وَاسْتَنَى إِذَا نَظَرْتُ
أَوْ مَدْنَفٌ لَمَّا يُفَتِّقُ بَعْدُ (٣)
بِفَتْوَرٍ حِينَ مَا بِهَا رَمَدُ
وَبِهَا تُدَاوِي الْأَعْيُنَ الرَّثْمَدُ

(١) الأديم : الجلد .

(٢) الفودان : جانباً الرأس بما يلي الأذن . جمع : متجمع كثيف
والمقصود به (الشعر) .

(٣) رمى : أخذها النوم الشديد . المدنف : من ثقل عليه المرض .

وتُريكَ عِرنيناً يَزينه
. شَمَمٌ ، وخِداً لونه الورد (١)
وتجِيلٌ مِساوِكَ الأراكِ على
رِتلٍ كأن رِضابَه الشَهد (٢)
والصدرُ مِنها قد يَزينه
نَهدٌ كحَقِّ العَجاجِ إذ يَبدو
والمِصمانِ ، فما يُرى لهما
من نِعمَةٍ وبِضاضَةٍ زَند
ولها بَنانٌ لو أَرَدتَ لَه
عِقدًا بِكَفِّكَ أَمَكنَ العِقد
وكأَنما سَقيتَ رِائبَها
والنَحرُ ماءَ الوردِ إذ تَبدو (٣)
وبِصدرِها حَقَّانٌ خَلَّتِها
كَافُورَتينِ عَلاما نَدُّ (٤)

(١) العرنين : الأنف . الشمم : الترفع والكبرياء .

(٢) الرتل : اللحم الجميل الأسنان في بياض ولعان . الرضاب : المقصود به ماء الفم .

(٣) الرائب : عظام الصدر . النحر : أعلى الصدر .

(٤) الندب : عود طيب الرائحة يتبخر به .

والبطن مطوي كما طويت
 بيض الرياط يصونها المثلث^(١)
 وبخصرها هيف يزينه
 فإذا تنوء يكاد ينقد^(٢)
 ولها هن راب مجسته
 وعمر المسالك ، حشوه وقند
 فإذا طعننت طعننت في لبد
 وإذا نزعت يكاد ينسد^(٣)
 والتف فخذاهما ، وفوقها
 كفل - يجاذب خصرها - نهد^(٤)
 فقيامها مثنى إذا نهضت
 من ثقله ، وقعودها فرد
 والساق خروعة منعمة
 عيلت فطوق الحجل منسد^(٥)

-
- (١) الرياط: جمع ربطة وهي الملاة . اللد: جمع ملداء : المرأة الناعمة .
 (٢) الهيف : ضمور البطن ورقة الخاصرتين . تنوء : تنهض يجهد
 ومشقة - تسقط . ينقد : ينكسر .
 (٣) اللبد : الشعر الكثيف التجمع . وهذا البيت والبيت السابق
 يقال لإنها دخيلان على القصيدة .
 (٤) الكفل المعجز أو الردف . نهد : البارز المرتفع .
 (٥) خروعة : الطويلة الناعمة . عيلت : اكتنفت وضخمت .

والكعب أدرم لا يبين له
حجم^(١) ، وليس لرأسه حد^(٢)
ومشت على قدمين مُخَصَّرًا
والتفتتا ، فتكامل القد^(٣)
ما عابها طول ولا قِصَر
في خلقها ، فقوامها قصد^(٤)

الشكوى من الهجر والصدود :

إن لم يكن وصل لديك لنا
يشفي الصبابة ، فليكن وعد^(٥)
قد كان أورق وصلكم زمنا
فدوى الوصال وأورق الصد^(٥)
لله أشواقي إذا نزحت
دار بنا ، وطواكمو البعد

(١) أدرم : عظمه لا يبين من كثرة ألمه اللين الأملس .

(٢) الحد : القوام .

(٣) قصد : سوي معتدل ليس به طول أو قصر .

(٤) الصبابة : شدة الوجد والهيام .

(٥) أورق وصلكم : طاب وصالكم وواتى وأينع .

إن تتهمي فتهامة وطني
أو تنجدي، يكن الهوى نجداً^(١)
وزعمت أنك تضرين لنا
وداً ، فهلاً ينفع الود !
وإذا الحب شكا الصدود ولم
يعطف عليه فقتله عمد
نختصها بالود ، وهي على
ما لا نحب ، فكذا الوجد !

فخر وكبرياء :

أو ما ترى طمري بينهما
رجل ألح بهزله الجد^(٢)
فالسيف يقطع وهو ذو صدأ
والنصل يعلو الهام لا الغمد^(٣)

(١) إن تتهمي أو تنجدي : أن تنتسب إلى تهامة أو نجد .

(٢) طمري : مثني طمر، وهو الثوب البالي .

(٣) الهام : جمع هامة ، الرأس .

هل تنفعن السيف حليته
 يوم الجلاء إذا نبا الحد^(١)
 ولقد علتُ بأني رجلٌ
 في الصالحاتِ أروحُ أو أغدو
 سلمٌ على الأدنى ومرحمةٌ
 وعلى الحوادثِ هادنٌ كجلد^(٢)
 متجلبب ثوب العفاف وقد
 غفل الرقيب وأمكن الورد^(٣)
 ومجانِبُ فعل القبيح ، وقد
 وصل الحبيب ، وساعد السعد
 منعَ المطامع أن تثلثني
 أنثي ليمغولها صفاً صلداً^(٤)
 فأروحُ حرّاً من مذلتها
 والحرُّ حين يطعمها عبداً

(١) نبا : زاغ ولم يصب .

(٢) هادن : ساكن . جلد : صبور قوي .

(٣) الورد : الوصال والارتواء من الحب .

(٤) تثلثني : تخرجني وتعييني . صفا : جمع صفاة : الصخرة أو الحجر
الضخم . الصلد : الصلب القوي .

آليت أمدح 'مقرفاً' أبداً
 يبقى المديح وينفد الرقاد^(١)
 ميهبات ، يابى ذاك لي سلفاً
 خدوا ولم يحمد لهم مجد
 والجدة كئيدة والبشون هو
 فزكا البنون وأنجب الجدة^(٢)
 فلئن قفوت جميل فعلهمو
 بدميم فعلي ، إنني وعغد^(٣)
 أجمل إذا حاولت في طلب
 فالجدة يُفني عنك لا الجدة^(٤)

نداء أخير :

ليكن لديك لسانٌ "فرج"
 أو لم يكن .. فليحسن الرد !

(١) مقرفاً : غنياً ، كثير اقتناء المال . الرد : العطاء .

(٢) زكا : أفلح ونجح .

(٣) قفوت : تيمت .

(٤) أجمل : اعتدل ولا تفرط . الجدة : الحظ .

قمر في بغداد

لابن زريق البغدادي

وهذا شاعرٌ قتله طموحه ، يعرفه دارسو الأدب ومحبّوه ،
لكنهم لا يعرفون له غير هذا الأثر الشعري الفريد يتناقضه
الرواة ، وتُعنى به دواوين الشعر العربي . فإذا ما تساءلنا
عن الشاعر ، وعن سائر شعره فلن نظفر من بين ثنايا الصفحات
بغير بضعة سطور تحكي لنا مأساة الشاعر العباسي ابن زريق
البغدادي الذي ارتحل عن موطنه الأصلي في بغداد قاصداً بلاد
الأندلس ، علته يجد فيها من لين العيش وسعة الرزق ما يُعوضه
عن فقره ، ويترك الشاعر في بغداد زوجةً يحبها وتحبه كل
الحب ، ويخلص لها ويخلص له كل الاخلاص ، من أجلها يهاجر
ويسافر ويقترب . وفي الأندلس - كما تقول لنا الروايات
والأخبار المتناثرة - يجاهد الشاعر ويكافح من أجل تحقيق
الحلم ، لكنّ التوفيق لا يصاحبه ، والحظ لا يتسم له ، فهناك
يمرض ، ويشتد به المرض ، ثم تكون نهايته في الغربة .

ويضيف الرواة 'بعثاً جديداً للأساسة' ، فيقولون إن هذه القصيدة التي لا يُعرف له شعر سواها وجدت معه عند وفاته سنة أربعمائة وعشرين من الهجرة ، يخاطب فيها زوجته ، ويؤكد لها حبه حتى الرمق الأخير من حياته ، ويترك لنا - نحن قراءه من بعده - 'خلاصة' أمينة لتجربته مع الغربة والرحيل ، من أجل الرزق ، وفي سبيل زوجته التي نصحته بعدم الرحيل فلم يستمع إليها ، ثم هو في ختام قصيدته نادم - حيث لم يعد ينفع الندم أو يجدي - متصدع القلب من لوعة وأسى ، حيث لا أنيس ولا رفيق ولا معين .

والتأمل في قصيدة ابن زريق البغدادي لا بد له أن يكتشف على الفور رقة التعبير فيها ، وصدق العاطفة ، وحرارة التجربة . فهي تتم عن أصالة شاعر مطبوع له لفته الشعرية المتفردة ، وخياله الشعري الوثاب ، وصياغته البليغة المزهقة ، ونفسه الشعري الممتد . والغريب ألا يكون لابن زريق غير هذه القصيدة ، مثله كمثل دوقلة المنبجي الذي لم تحفظ له كتب تراثنا الشعري غير قصيدته « اليتيمة » .. وهكذا استحق الشاعران فضل البقاء والذكر - في ذاكرة الشعر العربي كله - بقصيدة واحدة لكل منها .. وبالمقابل ، ما أكثر الشعراء الذين لا تعيهم ذاكرتنا ، بالرغم من أنهم سودوا مئات الصفحات وتركوا عشرات القصائد وزحموا الدواوين والمكتبات .

يستهلّ ابن زريق قصيدته بمخاطبة زوجته ، يناشدها ألا
تعذله أو تلومه ، فقد أثر فيه اللوم وآذاه ، وأضرّ به بدلاً
من أن ينفعه ، إنه هنا يبسط بين يديها أسباب رحيله عنها
وتركه لها طمعاً في الرزق الفسيح والعيش الهانيء الوثير ،
وسرعان ما يعلن عن ندمه لأنّ ما أمله لم يتحقق ، وما رجاء
من رزق وفير لم يتح له ..

ثم يلتفت ابن زريق التفاتةً محبّة عاشق إلى بغداد ،
حيث زوجته التي تركها دون أن يستمع إلى نصحتها ، إنها
ملكته التي أضاعها ولم يحسن تدبيرها وعرشه الذي خلع عنه ..
وفي ختام القصيدة ، يصف ابن زريق - في تعبير صاف
مؤثر ونسيج شعري محكم - واقع حاله في الغربة ، بسين
الأسى واللوعة ، والألم والندم ، وهنا ينفس المجال التأمل ،
وينطلق اللسان بالحكمة التي أنضجتها التجربة ، ويشرق القلب
بالدموع .

* * *

يقول ابن زريق البغدادي :

رفقا به بدلاً من لومه :

لا تعذليه ، فإن العذل يولعه

قد قلت حقاً ، ولكن ليس يسمعه^(١)

(١) لا تعذليه : لا تلومه .

جاوزتِ في لومه حداً أضرب به
 من حيث قدرت أن اللوم ينفعه
 فاستعملي الرفق في تأنيبه ، بدلاً
 من عدله ، فهو مضى القلب موجهه
 قد كان مضطرباً بالخطب يحمله
 فضيقت بخطوب الدهر أضلعه
 يكفيه من لوعة التشتيت أن له
 من النوى كل يوم ما يروعه (١)
 ما آت من سفر إلا وأزعجه
 رأي إلى سفره بالعزم يزعمه (٢)
 كأنما هو في حلٍ ومرتحل
 موكل بفضاء الله يذرعه (٣)

لماذا رحل :

إن الزمان أراه في الرحيل غنى
 ولو إلى السد أضحى وهو يزعمه (٤)

(١) النوى : الفراق والبهاد .

(٢) آت : رجع .

(٣) موكل : مضى ومستول . يذرعه : يقطعه . الحل والمرتحل : الإقامة والرحيل .

(٤) يزعمه : يعتزمه ويبتريه .

ومسا مجاهدة الإنسان توصله
رزقاً ، ولا دعة الإنسان تقطعه (١)
قد وزع الله بين الخلق رزقهم
لم يخلق الله من خلق يضيعه
لكنهم كلفوا حرصاً ، فلست ترى
مسترزقاً ، وسوى الغايات تقنعه (٢)
والحرص في الرزق - والأرزاق قد قسمت -
بغى ، ألا إن بغى المرء يصرعه
والدهر يعمي الفقى - من حيث يمنع -
إرثاً ، ويمنع من حيث يطعمه

كيف كان الوداع :

أستودعُ الله في بغداد لي قرأ
«بالكرخ» من فلك الأضرار مطلقه (٣)

(١) المجاهدة : مواجهة المصاعب والشدائد . الدعة : الأمان والسكون والاطمئنان .

(٢) كلفوا حرصاً : أطعمهم الحرص والرغبة في المزيد .

(٣) الكرخ : اسم موضع في بغداد . من فلك الأضرار : من بين ثنايا الثوب الذي يرتديه .

ودعته وبودي لو يودعني
صفو الحياة ، وأني لا أودعه
وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحي
وأدمعي مستهلات وأدمعه (١)
لا أكذب الله ، ثوب الصبر 'منخرق'
عنشي بفرقه ، لكن أرقعه
إني أوسع عذري في جنائته
بالبين عنه ، وجُرْمي لا يوسعه (٢)
رُزقت 'ملكاً' فلم أحسن سياسته
وكلُّ من لا يسوس الملك يخلعه
ومن غدا لابسا ثوب النعيم بلا
شكرٍ عليه ، فإن الله ينزعه

غربة وندم :

اعتضتُ من وجه خلتي - بعد فرقه -
كأساً أجرع منها ما أجرعه (٣)

(١) تشبث : استمسك . مستهلات : سيالة متدفقة .

(٢) البين : البعد . جرّمي : ذنبي .

(٣) اعتضت : استبدلت .

كم قائل لي : ذقت البين ، قلت له :
 الذنبُ والله ذنبي لست أدفعه
 ألا أقت فكان الرشد أجمه ؟
 لو أنني يوم بان الرشد أتبعه
 إني لأقطع أيامي ، وأنفدها
 بحسرة منه في قلبي تقطعه (١)
 بمن إذا هجع النوم بت له
 - بلوعة منه - ليلى ، لست أهجمه (٢)
 لا يطمئن لجني مضجع ، وكذا
 لا يطمئن له مذ ربت مضجعه (٣)
 ما كنت أحسب أن الدهر يفجعني
 به ، ولا أن بي الأيام تفجعه
 حتى جرى البين فيما بيننا بيد
 عسراء ، تمنعني حظي وتمنعه (٤)
 قد كنت من ريب دهري جازعاً فرقاً
 فلم أوق الذي قد كنت أحزعه (٥)

-
- (١) أنفدها : أمضيها وأنهيها .
 (٢) هجع : رقد وآوى إلى النوم .
 (٣) بت : غبت وارتحلت .
 (٤) يد عسراء : يد باطشة قاهرة (من المر والضيق والشدة) .
 (٥) ريب الدهر : صروفه وأحداثه المزعجة . فرقاً : خائلاً متوجساً .

حنين إلى العهد القديم :

بالله يا منزل العيش الذي درّست
آثاره ، وعفّت مذّ بفت أربعه (١)
هل الزمان مُعيد فيك لذّتنا
أم الليالي التي أمضته تُرجعه
في ذمة الله من أصبحت منزله
وجاد غيث على مفناك يُمرعه (٢)
من عنده لي عهد لا يضيّعه
كما له عهد صدق لا أضيّعه
ومن يصدّع قلبي ذكره ، وإذا
جرى على قلبه ذكرى يصدّعه (٣)
لأصبرن* لدمري لا يتمني
به ، ولا بيّ في حال يتمه

(١) درست : زالت وأمحت . أربع : جمع ربع : الدار أو مكان الإقامة أو ما حولها .

(٢) الغيث : المطر الكثير المساقع . المغنى : المنزل الذي غني به أهله . يمرعه : يخلصه وينضره .

(٣) يصدّعه : يهده ويؤزقه .

علماً بأن اصطباري 'معقب' فرجاً
فأضيقُ الأمر إن فكّرت أوسعهُ (١)
عسى الليالي التي أضنت بفرقتنا
جسمي ، ستجمعني يوماً وتجمعه
وإن ثقل أحداً منّا منيته
فما الذي بقضاء الله يصنعه ! (٢)

* * *

(١) معقب فرجاً : متبع فرجاً ويسراً .
(٢) ثقل : تهلك . النية : الموت .

مجلس الحبيب

لصفي الدين الحلي

يأتينا شعره في عصر المخطاط الدولة العربية ، والشعر
العربي ، قَبَساً متقدماً بالشاعرية الأصيلة ، وصوتاً فريد التعبير ،
رائق الأنغام ، صافي الديباجة ، قوي السبك ، فيعود الأمل
من جديد في قافلة الشعر العربي .. وتصدح القوافي على وتر
هذا الشاعر العراقي الأصل والنشأة ، المصري الروح والإقامة ،
صفي الدين الحلي ..

هو أبو المحاسن عبد العزيز بن سرايا بن نصر الطائي ، ولد
في مدينة الحليّة بالعراق سنة ستائة وسبع وسبعين من الهجرة ،
وإليها نسب ، ومات في بغداد سنة سبعائة واثنين وخمسين
من الهجرة ..

يقول عنه الرواة إنه أولع بنظم الشعر منذ حداثة سنه
— على غير عادة شعراء عصره وأهل زمانه — عاهد نفسه ألا

يمدح كريماً وألاً يهجو لثيماً ، ملتزماً بقوله إنه لا ينظم الشعر
إلا فيما أوجب له ذكراً ..

ويطالعنا صفى الدين الحلي بشخصية طريفة فائنة ، هي
شخصية الفارس الشجاع المقاتل ، يقتحم المهالك والمخاطر ،
مقدماً غير مبال أو هياب أو متردد .. تقع الفتنة في بلده
« الحليّة » بين أبناء أسرة هولاء بسبب الصراع على العرش ،
فيخوض صفى الدين غمارها غير هياب ولا وجل ، ويظهر
بطولة وشجاعة ينطق بها شعره ..

وفي ذلك العصر ، الذي سقط المجد والشرف العربي تحت
أقدام هولاء كوّ ، وخرّبت بغداد ، عاصمة الوطن العربي ،
واحتل العراق ، نجّد صفى الدين عربياً صادق العروبة ، يجر
بها في شعره ، ويتحمس دوماً لقومه ، ويبث فيهم روح الألفة
والطموح والعزيمة والتمرد ، وهي مزجة لا نجدها عند شاعر
سواه من شعراء ذلك العهد ، الذين كانوا يتسترون ويتوارون
خوفاً وذعراً ورغبة في اتقاء الفتن والأخطار والحروب .

ثم يرحل صفى الدين إلى آل « أرتق » ملوك ديار بكر بن
وائل ، فيمدح الملك المنصور نجم الدين أبا الفتح غازي بتسع
وعشرين قصيدة سماها « درر النحور في مدائح الملك المنصور »
وهي المعروفة - في ديوان الشعر العربي - بالأرتقيات ، ثم
يتصل بالسلطان المؤيد عماد الدين اسماعيل ابن الملك الأفضل
أيوّب ثم بابنه شمس الدين أبي المكارم ، مادحاً ، مستعناً

للهم ، مصرّاً على إحياء الروح العربية والنخوة العربية
والشعر العربي ..

وتشتد الفتن ، ويضطرب نظام كل شيء ، ويفتقد الأمر
والاطمئنان ، فيرحل صفى الدين إلى مصر ، ويقربه سلطانها
الملك الناصر ، فيمدحه بعدة قصائد سماها المتنصريات .. ثم
يجمع ديوانه في مصر بإشارة من ناصر الدين محمد بن قلاوون
رئيس وزراء السلطان الناصر .

ويتأثر الشاعر تأثيراً عميقاً بإقامته في مصر ، لقد هدأت
روحه وصفت لغته الشعرية ورقّت وأخذت تميل إلى السلاسة
والعذوبة ، وأصبح الفارس العنيد الجامح عاشقاً رقيقاً مرهفاً ،
تفتك به محاجر العيون وسهام الأحاظ وهيف الخصور ، وتسببه
المجالس الناعمة ، ومظاهر الطبيعة الغناء ، ويفتن في وصف
مجالس اللهو والأنس ، ويأسر القلوب بما أبدع من ربيعاته
وزهرياته الجميلة ، التي يقول في إحداها :

ورد الربيعُ فرحاً بوروده

وبنور بهجته ونور وروده

وبحسن منظره وطيب نسيمه

وأنيق ملبسه ووشى بروده

فصل إذا افتخر الزمان ، فإنه

إنسان مقلته وبيت قصيده

وغزلياته الرقيقة التي يقول في إحداها :
عبث النسيم بقوسسه فتأوَّدا
وسرى الحياءُ بخدّه فتورّدا
رشأ تغرّده فيسه قلبي بالهوى
لما غدا بحاله متفردا
مغرى بإخلاف المواعد في الهوى
يا ليتسه جعل القطيعة موعدا
حسن الفصون إذا اكتست أوراقها
ونراه أحسن ما يكون مجردا

* * *

والتأمل في شعر صفى الدين الحلي يلمس على الفور ولعه
بالبديع والمحسنات اللفظية والمعنوية التي شاعت في زمانه
لكنها ، على كثرتها ، لا تفسد ماء شعره وروثق بهائه
فشاعريته الخصبه واقتداره اللغوي وحسه المرهف وذوقه
الرفيع تتغلب جميعا على هذه المحسنات والبديعيات ، ولا تجعل
القارىء يصدم كثيراً بتكلف أو مغالاة أو تكرار أو جفاف
في التعبير ونبوّ في الصياغة .

ولعل القصيدة التي نطالعها له الآن ، أن تكون فريدة
الطابع في ديوان شعرنا العربي كله ، فهي قصيدة قدور كلها

حول وصف مجلس أنيق استمتع فيه الشاعر بحبيبه ، واقتنّ في
تصوير كل ما أحاط بها من مشاهد الطبيعة والسحر والجمال :
الجمال الطبيعي والجمال الإنساني معاً ، اقتناناً لا يدع زيادة
لستزيد ، في عبارة سهلة ممتعة ، وخيال طليق مخلق ،
وموسيقى عذبة متراقصة ، كما تكشف القصيدة ، وهي طويلة ،
إن لم تكن من أطول قصائده ، تكشف عن عمق عاطفته
المشوبة ، وحبّه الشاعر الملتهب ، ووجدته المبرّح ، الذي صهر
كبرياء الفارس الشجاع وأحاطها زفريات عاشق مستهام .

يقول صفي الدين الحلي في قصيدته : « مجلس الحبيب » :

أذاب التبر في صافي اللجين
رشاً بالراح مخضوب^(١) اليدين
وطاف على السحاب بكأس راح
فطاقت مقلتساء بأخريئ
رخيم من بني الأعراب طفل
يجاذب خصره جبلي^٢ حنين

(١) التبر : الذهب . اللجين : الفضة . رشاً : غزال . مخضوب
مصبوغ بالخضاب (الحناء) . الراح : الخمر .

يُبدل نطقه ضاداً بدال
ويشرك . عجمة قافاً بغين
يطوف على الرفاق من الحُيّا
ومن خمر الرضاب بمُسكرين^(١)
إذا يحلو الحيا والحيا
شهدنا الجمع بين النيران^(٢)
وآخر من بني الأعراب حفت
جيوش الحسن منه بعارضين
إلى عينيه تنسب المنايا
كما انتسب الرماح إلى ردين^(٣)
تلاحظ سوسن الحدين منه
فبيدها الحياء بوردين
ومجلسنا الأنيق تضيء فيه
أواني الرّاح من ورق وعين
فأطلقنا قم الإبريق فيه
وبات الزُّقّ مغلول اليدين^(٤)

(١) الحيا : سورة الحمر وشدها . الرضاب : وحقيق قم المهبوب .
(٢) النيران : الكوكبان . يقصد بهما : الحمر ووجه المهبوبة .
(٣) المنايا : جمع منية ، الموت . ردين : بسك كانت تشتهر بصناعة
الرماح ، يقال : رمح رديني .
(٤) الزُّقّ : (بضم الزاي) الحمر ، ربكسرهما : وعاء من الجلد يوضع
فيه الماء أو الحمر .

وشعنتنا شبيه سنات قبر
 توقدُ في أكف الساقين
 إذا ملء الزجاج بها وطارت
 حواشي نورها في المشرقين
 عجبت لبدر كأسٍ صار شمساً
 يحفُّ من السقاة بكوكبين^(١)
 وقد صاغت يد الأزهار تاجاً
 على الأغصان فوق الجانبين
 ورد كالمداهن في عقيق
 وأقداح كازرار اللجين^(٢)
 وقد جمعت لي اللذات لما
 دنت منها قطوف الجنئين
 وما أنا من هوى الفيحاء خالٍ
 ولا ممن أحب قضيت ديني^(٣)

(١) يحف : يحامل .

(٢) المداهن : جمع دهن ، وهي قارورة الدهن ، المتيق : الخرز الأحمر .

(٣) الفيحاء : اسم لدمشق (وقد كان الشاعر دائم التنقل بين العراق والشام ومصر مشتغلاً بالتجارة) .

قَلْبُكَ حَبِي قَلْبِي وَصَدْرِي
 فَأَصْبَحَ سَائِرًا فِي الْخَافِقِينَ
 وَأَعُوزُ مَعَ دُنُوِّي مِنْهُ صَبْرِي
 فَكَيْفَ يَكُونُ صَبْرِي بَعْدَ بَيْنٍ ^(١)
 إِذَا مَا رَامَ أَنْ يَسْلُوهُ قَلْبِي
 تَمَثَّلَ شَخْصَهُ تِلْقَاءَ عَيْنِي ^(٢)
 أَلَا يَا نَسْمَةَ «السَّعْدِيِّ» كُونِي
 رَسُولًا بَيْنَ مَنْ أَهْوَى وَبَيْنِي
 وَيَا نَشْرَ «الصَّبَا» بَلِّغْ سَلَامِي
 إِلَى الْفِيحَاءِ بَيْنَ الْقَلْعَتَيْنِ ^(٣)
 وَحَيَّ الْجَامِعَيْنِ وَجَانِبَيْهَا
 فَقَدْ كَانَا لَشَمْلِي جَامِعَيْنِ
 وَقُلْ لِمُعَذِّبِي هَلْ مِنْ نِجَازٍ
 لَوْعَدْتِي سَالِفِيكَ السَّالِفِينَ ^(٤)

-
- (١) البين : الفراق والسعاد . أعوز : تغدّر وامتنع .
 (٢) تلقاء عيني : أمام عيني .
 (٣) النسر : الريح الطيبة . الصبا : ريح ناعمة تهب من الشرق .
 (٤) نجاز : إنجاز وتحقيق .

سيئك كان مقتولاً بظلم
 وأنت ظلمتني وجلبت حيني^(١)
 وهبتك في الهوى روي بوعد
 وبعثك عامداً نقداً بدين
 وجئت وفي يدي ، كفي وسيفي
 فكيف جعلتها 'خفي' حنين^(٢)
 ولم صيرت بعدك قيد قلبي
 وكان جمال وجهك قيد عيني ؟
 فصرنا نشبه النسرين بعداً
 وكننا ألفة كالفرقدين^(٣)
 عدت بأن وعدك صار ميئاً
 لزجري مقلتيك بصارمين^(٤)

-
- (١) حيني : هلاكي وموتي . سيئك : من اسمه على اسمك .
 (٢) حنين : يضرب به المثل عند العرب في العودة صفر اليدين دون
 أي كسب .
 (٣) الفرقدان : نجهان متجاوران في السماء .
 (٤) ميئاً : كذباً وزوراً .

وقلت وقد رأيتك : خاب سعي
 لكون البدر بين العقربين
 فلم دليتي بحبال زور
 ولم أطمعتني بسراب مین^(١)
 وملا قلت لي قولاً صريحاً
 فكان المنع إحدى راحتين
 عرفتك دون كل الناس ، لما
 نقدتك في الملاحاة نقد عين^(٢)
 وكم قد شاهدتكم الناس قبلي
 فما نظروك كلهمو بعيني
 وطاوعت الفتوة فيك حتى
 جعلتك في العلاء برتبتين
 فلما أن خلا المغنى وتبنا
 عُرارةً بالعفاف مؤزرین^(٣)

(١) دليتي بحبال زور : أطمعتني كذباً في الري والسعي .

(٢) نقدتك : فحمتك واختبرتكم وميزتكم .

(٣) المغنى : المكان أو الدار التي تضمنا . مؤزر : ملتف بإزار وهو كل ما يستر الجسم .

قضينا الحج نضماً . واستلاماً
 ولم نشعر بما في الشعرين
 أتهجرني وتحفظ عهد غيري
 وهل للموت عذرٌ بعد دين
 وقلت : الوعد عند الحرّ دين ،
 فكيف مطلّتي وجعدت عيني^(١)
 إذا ما جاء محبوبي بذنب
 يسابقه الجمال بشافعين
 وقلت : جعلت كلّ الناس خصمي
 لقد شاهدت إحدى الحاليتين
 فكان الناس قبل هواك صبحي
 فهل أبقيت لي من صاحبين ؟
 بعادي أطمع الأعداء حق
 وأولئك اليوم خزر الناظرين^(٢)
 وملا طالعوك بعين سوء
 وأمري نافذ في الدولتين^(٣)

(١) مطلّتي : سوفت بوعدتي ولم تف به .

(٢) خزر الناظرين : خسر المئين لأنه ينظر بوخرها .

(٣) الدولتان : يقصد بها السيف والقلم أي أنه فارس شاعر .

وما خفقت جناح الجيش . إلا
 رأوني ملء قلب المسكرين
 لئن سكنت إلى « الزوراء » نفسي
 فإن القلب بين محرّكين ^(١)
 سوى يقتادني لديار بكر
 وآخر نحو أرض الجامعين ^(٢)
 سأسرع نحو رأس العين خطوي
 وأقصد ما على رأسي وعيني
 وأسرح في حمى « جيرون » طرقي
 وأربع في رياض النّيرين ^(٣)
 فليس الخطب في عيني جليلاً
 إذا قابلته بالأصفرين ^(٤)

-
- (١) الزوراء : مدينة بغداد ؛ سميت بهذا الاسم لازورار قبلتها (بها عوج) . بين محرّكين : بين عاملين قريين يتجاذبان .
 (٢) أرض بكر : العراق . أرض الجامعين : دمشق .
 (٣) جيرون : أحد أبواب دمشق القديمة . أسرح طرقي : أقلب نظري .
 أربع : أستمع بالربيع .
 (٤) الأصفران : هما اللسان والقلب .

فيا مَنْ بان لما بان صبري
وحاربني رقّادُ المقلتين
تنفّص فيك د الزوراء ، عيشي
ويُدّل زينُ لذاتي بشين (١)
وما عيشي بها جَهِشاً ، ولكن
رأيت الزين بعدك غير زين (٢)

* * *

(١) الشين : ضد الزين . والزوراء : من أساء بغداد .

(٢) الجهم : العابس المشوب بالكدر والاضطراب .

[أضحي التناسلي]

لابن زيدون

هو أشهر صوت شعري انطلق في ربوع الأندلس ، مفرداً ،
مردداً أحلى القصائد والمقطوعات ، شاعراً ووزيراً وعاشقاً
مستهماً ، وسجيناً وهارباً ومُطارداً ، وساعياً من بلدة إلى
بلدة ومن حاكم إلى حاكم ، وأتيح لشعره من الذبوع ما لم يتح
لغيره من شعراء الأندلس - ذلك هو ذو الوزارتين : الكاتب
الشاعر الرقيق : ابن زيدون عاشق ولادة بنت المستكفي ،
وبحري الغرب في رأي الكثيرين - تشبهاً له ببحتري
الشرق - في رقة تعبيره وروعة أساليبه وانطلاق خياله وأصالة
فنه وقدرته على التحليق الشعري .

ولد ابن زيدون في قرطبة قرب ختام القرن الرابع
الهجري - سنة ثلاثئة وأربع وتسعين - وبها تنقف وأتقن فن
الأدب : شعره ونثره ؛ ثم اتصل بابن جهور وصار وزيره
وكاتبه الأول حتى كان حبه لولادة ومزاحمة ابن عبدوس له في

حبها ، ومكيدته له عند ابن جهور التي انتهت بسجنه ، ومن السجن يرسل ابن زيدون أناتٍ مستعطفة وقصائد مليئة بالشكوى والمرارة والرجاء ، فلا يلتفت إليه أحد - وينجح ابن زيدون في الفرار من السجن ومغادرة قرطبة ، ثم يعود إليها بعد أن 'توفي أبو الحزم بن جهور وقوى الحكم ابنه الوليد' ، الذي 'يعيده إلى سابق مكانته ومنزله ويحمله سفيراً بينه وبين ملوك الطوائف .

لكن الحسد والحقد والدسائس 'تلاحق ابن زيدون من جديد ، فينقلب عليه الوليد ، ويضطر إلى الفرار من قرطبة ثانية ، ويتنقل في الأندلس ، حتى 'يلقي عصا التسيار لدى المعتضد حاكم إشبيلية ، ويموت المعتضد ، فيصبح ابن زيدون وزير ابنه « المعتمد » الذي كان شاعراً ، فيعطي مقام ابن زيدون ، ويتألق نجمه ، وتلتئم مواهبه وتزكو شاعريته ، وتدور بين الأمير ووزيره مطارحات شعرية كثيرة ، ثم يتم للمعتمد الاستيلاء على قرطبة موطن ابن زيدون وينتقل إليها ويجعلها عاصمة ملكه .. وتثور في إشبيلية فتنة طائفية بسبب اليهود فيرسل المعتمد ابن زيدون لتهدئتها بما له من منزلة في قلوب الإشبيليين ، لكن الشاعر الذي كان قسداً هرم وشاخ وأنهكه المرض لا يكاد يصل إلى إشبيلية حتى تلعج عليه الحمى ويموت فيها سنة أربعمائة وثلاث وستين من الهجرة .

هذه الحياة العاصفة المتقلبة ، وهذه الأحداث الجسيمة

المتتالية ، صقلت وجدان ابن زيدون وألهبت قدرته الشعرية ، وانعكست في شعره تفتناً في الشكوى والحنين والتأمل والنظر في مصائر الأيام وتقلب الزمان . لكن أبعد ما غوراً في نفسه هو حبه لولادة بنت المستكفي ، التي كانت تُقرب به حيناً ثم تقرب غريمه ومنافسه ابن عبدوس حيناً آخر . ومن أجل ولادة كتب ابن زيدون نونيته الرائعة - أشهر قصائده على الإطلاق - والتي عارضها أحمد شوقي وهو يعاني بدوره مرارة النفي والاعتراق في أسبانيا بنونيته التي مطلعها :

يا ناسح الطللح أشباه عوادينا
نأسى لواديك أم نشجى لوادينا

والتي جعلت كثيراً من المولعين بالمقارنات يتوقفون عند القصيدتين ، تأملاً وتحليلاً وتقسيماً ومقارنة ، كما توقفوا عند السينينتين : سينية البحري وسينية شوقي للسبب نفسه .

يتميز شعر ابن زيدون بالمعذوبة وتوافر النغم الموسيقي والسهولة ، كما يتميز بالانسياب والاسترسال والتدفق في طوابعه ويُسّر ، ودون جهد أو إعفات ، شأن الشاعر المطبوع الذي يمتح من معين صاف لا ينضب ، وشعره في الغزل يتميز بالنعومة والبراعة في التصوير ، تصوير خلجات النفس ومكنون أسرارها ، ولوعة الحب الصادق في معاناته ومكابدته ، كما يتميز بجزج الغزل بوصف الطبيعة ، مما أعطى لقصائده في الحب إطارها الطبيعي المشرق ، وجعلها شبيهة باللوحات

المصوّرة ، الناطقة بالفن الرفيع والشعور الحيّ المرهف ،
والوجد المتقد المبرّح ..

يقول الدارسون لحياة ابن زيدون وشعره ، إنه كتب
نونيته هذه وهو هارب من السجن بعد أن يش من إقناع ابن
جهور بإطلاق سراحه ، وأصبح بعيداً عن مركز الوزارة
المرموق ، وتلفتت يبحث عن ولادة فألفى نفسه بعيداً عنها
أيضاً .. ولقد عادت إليه حريته بالهرب من السجن ، ولكنه
ما يزال يعاني غربتين أو معضلتين ، الوزارة التي يصبو إليها ،
والتي يعتبر عودته إليها تصحيحاً لمسار حياته وتكريماً لذاته ،
وولادة التي بذل لها نفسه وعصارة قلبه وخلاصة شعره والتي
يخشى أن يفقدها إلى الأبد ..

إن الشاعر العاشق يستعطف محبوبته وضالته ويذكرها
بأيامها الماضية ، لعلها ترقّ وتلين ، فيعود ثانية ما كان بينهما
من ريق الوصال ، وأنيس الوداد ..

يقول ابن زيدون مخاطباً ولادة ..

استهلال وتوجع :

أضحى التنائي بديلاً من قدانينا
وناب عن طير لقينا تجافينا

ألا، وقد حان صبحُ البينِ، صبَّحنا
 حينٌ، فقام بنا للحينِ ناعينا (١)
 من مبلغِ الملبسينا بانتراحهمو
 'حزننا مع الدهر لا يَبلى وَيُبْلينا
 أن الزمان الذي ما زال يضحكتنا
 أنسا بقرهمو قد عاد 'يبيكننا
 غيظ العدا من تساقينا الهوى، فدعوا
 بأن نَقْصُ فقال الدهرُ آمينا
 فأنحلَّ ما كان معقوداً بأنفسنا
 وأنبتَ ما كان موصولاً بأيدينا (٢)
 وقد نكون وما 'يخشى تفرقنا
 فاليومَ نحنُ وما يُرجى تلاقينا

شاة الحساد :

يا ليت شعري ، ولم نعتب أعاديكم
 هل نال حظاً من العتبي أعادينا (٣)

(١) الحين : الهلاك . البين : الفراق .

(٢) أنبت : انقطع .

(٣) نعتب : رضى ، والعتبي : الرضا .

لم نعتقد بعدم إلا الوفاء لكم
رأياً ، ولم نتقصد غيره ديناً
ما حققنا أن تقرأوا عين ذي حسدٍ
بنا ، ولا أن تسرُّوا كاشعاً فينا (١)
كنا نرى اليأس تسلينا عوارضه
وقد يشنا فسا لليأس يُغرينا
وفاء على العهد :

بنتم وبنّا ، لما ابتلّت جوانحنا
شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا (٢)
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا
يقضي علينا الأسى لولا تأسّينا (٣)
حالت لفقدكم أيا منّا ففدت
سوداً ، وكانت كم بيضاً لباينا (٤)

(١) الكاشع : العدو المبغض . تقرأوا : تسعدوا .
(٢) بنتم وبنّا : أي ابتعدتم وابتعدنا . الجوانح : جمع جانحة ، وهي الضلع ، والمراد بالجوانح مسا تفضّه من القلب والحشا الملتهب بالحُب .
ولا جفت مآقينا : أي ولا جفت هيرتنا من الدمع والبكاء عليكم .
(٣) التأسي : التصبّر .
(٤) حالت : تغيرت من أبيض الى أسود .

إذ جانب العيش طَلَّقْ من قَالَفْنَا
 ومورد اللهو صافٍ من تصافينا
 وإذا هصرنا فنون الوصل دالِيةٌ
 قطافها ، فجئنا منه ما شينا (١)
 ليسق عهدهم ، عهد السرور ، فما
 كنتم لأرواحنا إلا رباحينا
 لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا
 إن طالما غير النأي الهيننا (٢)
 والله ما طلبت أهواؤنا بدلا
 منكم ، ولا انصرفت عنكم أمانينا
 ولا استفدنا خليك عنك يشغلنا
 ولا اتخذنا بديلا منك يسلينا
 تحية واستعطاف :

يا ساري البرق غادر القصر واستقر به
 من كان صرف الهوى والود يسقيننا (٣)

(١) هصرنا : جذبتنا وأملنا . فنون الوصل : أنواعه وألوانه . قطافها : ثمارها . ويرد : يقطعها .
 (٢) نأيكم : بعدكم .
 (٣) غادر القصر : أسفه وأمطره غداة (أول النهار) . صرف الهوى : خالص الهوى .

واسأل هنالك هل عنى تذكّرنا
 إلفاً تذكّره أمسى يُعْنِثُنَا (١)
 ربا نسيم الصُّبا بلغ تحيّننا
 من لو على البعد حيناً كان يحينا
 فهل أرى الدهر يقضينا مساعفةً
 منه ، وإن لم يكن رغباً تقاضينا (٢)

صورة وصفية لولادة :

ربيبُ مُلكٍ كانَ الله أنشاء
 مسكاً ، وقدر إنشاء الورى طينا
 أو صاعه ورقاً محضاً ، وتوجه
 من ناصع التبر إبداعاً وتحينا
 إذا تاوّد آدته رفاهيـــــة
 قومُ العقود ، وأدمته البرى لينا (٣)

(١) عنى : أمّ وأخنى

(٢) الغب : الزيادة بعد أيام (المتقطعة) .

(٣) تاوّد : تشبّه وتسايل . آدته : أثقلته . قوم العقود : حضود مزدوجة من الثور . البرى : الخلائيل .

كانت له الشمس ظئراً في أكليته
 بل ما تجلّى لها إلا أحايينا^(١)
 كأنما أثبتت في صحن وجنته
 زهر الكواكب تعويذاً وتزيينا^(٢)
 ما ضره أن لم تكن أكفاءه شرفاً
 وفي المسودة كافٍ من تكافينا
 يا روضة طالما أجنّت لواحظنا
 ورداً جلاء الصبا غصناً ونسريناً^(٣)
 ويا حبيسة قمتينا بزهرتها
 منى ضروباً ولذات أفانينا^(٤)

-
- (١) ظئراً : مرضعة . الأكلة : السائر الرقيقة (جمع كلة) .
 (٢) زهر الكواكب : النيرة المشرقة (جمع أزهر) .
 (٣) أجنّت لواحظنا : جعلتهنبا تجني وتقطف . النسرين : نوع من
 الورد أكثر ما يكون أبيض الزمر عطر الرائحة .
 (٤) قمتينا : قمتنا . ضروباً وأفانينا : ألواناً وأنواعاً . المنى :
 جمع منية .

وبأ نعيماً خطرتا من غضارته
 في وشي نعيمى سحبتنا ذيله حيناً (١)
 لسنا نسميك إجلالاً وتكرمة
 وقدرك المعتلى عن ذاك يغنيننا
 إذا انفردت وما شورك في صفة
 فحسبنا الوصف إيضاحاً وتبييناً
 يا جنة الخلد أبدلنا بسدرتها
 والكوفر العذب زقوماً وغسليننا (٢)
 كأننا لم نبت والوصل ثالثنا
 والسعد قد غض من أجفان واشينا
 إن كان قد عز في الدنيا اللقاء بكم
 في موقف الحشر نلقاكم ويكفيننا

(١) غضارته : نضارته ورونته والنعمة والسعة . الوشي : نوع من الثياب الحريرية المنقوشة .
 (٢) سدرتها : أي سدرة المنتهى ، شجرة عن يمين العرش في السماء . الزقوم : شجرة في جهنم منها طعام أهل النار . القسطين : ما يسيل من جلود أهل النار .
 ويروى البيت : بسلسلها بدلاً من بسدرتها ، ومعناه : المساء العذب البارد .

سرّان في خاطر الظلماء يكتمننا
حق يكاد لسانُ الصبح يفشينا (١)
لا غرو في أن ذكرنا الحزن حين نبت
عنه النشوى وتركنا الصبر ناسينا

لوعة وأسى :

إنا قرأنا الأسى يوم النوى سوراً
مكتوبةً وأخذنا الصبر تلتعينا
أما هواك فلم نعدل بمنهله
شرباً ، وإن كان يروينا فيظميننا (٢)
لم نجف أفق جمالٍ أنت كوكبه
سالين عنه ، ولم نهجره قالينا (٣)
ولا اختياراً تجنبناه عن كسب
لكن عدتنا على كرم عوادينا (٤)

(١) يفشينا : يفضعنا ويشي بنا ويعرضنا للأنظار .

(٢) الشرب : الورد العذب الماء .

(٣) لم نجف : لم نفارقه ونبتعد عنه كراهية . قالينا : أي مبغضينا .

(٤) عن كسب : عن قرب . عدتنا الموادي : أي صرفتنا وشغلنا

أحداث الدهر وعسوفه .

نأسى عليك إذا 'حشّت مشعشة'
فينا الشمول' وغنا'نا مغنينا (١)
لا أكؤس الراح تبدي من شمائلنا
سما ارتياح' ، ولا الأوتار تلهينا

نداء أخير :

دومي على العهد — ما دمننا — محافظة'
فالحر' من دان إنصافاً كما دينا
لما استعضنا خليلاً منك يحبسنا
ولا استفدنا حبيباً عنك يثنينا (٢)
ولو صبا نحونا من 'علور' مطلعه
بدر الدجى لم يكن حاشاك يُصبينا (٣)
أولي . وفاء' وإن لم تبدلي رِصلة'
فالذكر' يقنعنا ، والطيف' يكفيننا

(١) مشعشة : مزوجة بالماء . الشمول : من أساء الخير .
(٢) استعضنا : استبدلنا . يثنينا : يردنا ويصرفنا ويروي : يفتينا
بدلاً من يثنينا .
(٣) صبا : مال . يصبينا : يحملنا نعلقه ونهيم به .

وفي الجواب متاع إن شفقت به
بيض الأيدي ، التي ما زلت قولينا^(١)
عليك منّا سلام الله ما بقيت
صباة بك 'لخفيها ، فتخفينا^(٢)

(١) قولينا : كملين وقنحين . ويرى : اقتناع بدلاً من متاع .
(٢) الصباة : الشوق والولع الشديد . ويرى : صباة منك بدلاً من
صباة بك .

يا ليلُ الصبِّ متى غذه ؟

للحُصْرِي القسرواني

وهذه قصيدة من عيون الشعر العربي ، ذاعت شهرتها في
أندية الأدب ومجالس الغناء وتناقلها الناس جيلاً بعد جيل ،
ولشهرتها ودورانها ، فقد عارضها شعراء كثيرون في عصور
متتابعة ، كل منهم يحاول أن يتجاوزها فتناً وشاعرية ، ومن
أشهر الذين عارضوها : أحمد شوقي شاعر العصر الحديث ،
بقصيدته التي يقول فيها :

مضناكَ جفاه مرقدهُ

وبكاهُ ورخيمُ عودهُ

والتي ذاعت هي الأخرى واشتهرت في أندية الأدب ومجالس
الغناء ، وتناقلها الناس ، وأخذوا يوازنون بينها وبين قصيدة
الحُصْرِي ، ولهم في هذه الموازنات دروب وفنون ، وأحاديث
ذات شجون .

تلك هي قصيدة « يا ليل الصب » للشاعر الضير الحصري
القيرواني ، وهو أبو الحسن علي بن عبد الغني الحصري ، ولد
في القيروان عام أربعمائة وعشرين من الهجرة ، وقضى فترة من
صباه وشبابه في القيروان ، ثم غادرها وهو على مشارف
الثلاثين بعد أن أجاد فن الشعر وعلم القراءات ودرس الدين
والشريعة. وكان خروجه من القيروان بعد نكبتها التي خربتها
سنة أربعمائة وتسع وأربعين في أعقاب الخلاف الذي نشب بين
الفاطميين والمعز بن باديس والذي أدى إلى انقضاء قبائل بني
هلال وبني سليم على القيروان ، فتشتت أهلها منها ، وخرج
أدباؤها وعلمائها ، فمنهم من ذهب إلى صقلية كابن رشيق ،
ومنهم من توجه إلى الأندلس كابن شرف القيرواني ، أما
الحصري فكان خروجه إلى « سبته » ، فاستقر بها زماناً ..
واتصل في الأندلس بعدد من الأمراء مادحاً ، ونائلاً لجوائزهم
وهباتهم وعطاياهم .

ثم عاد الحصري من الأندلس إلى المغرب ، غير أنه استقر
في مدينة طنجة ، حتى كانت وفاته سنة أربعمائة وثمان
من الهجرة .

يقول عنه ابن بسام في كتابه « الذخيرة » ، كان أبو الحسن
الحصري بحراً بارعاً ورأس صناعة وزعيم جماعة ، وقد طرأ
على الأندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب
وطنه القيروان ، والأدب بأفق الأندلس يومئذ ، نافق السوق ،

مغمور الطريق ، فتهاواه ملوك الطوائف تهادي الرياض بالنسيم ،
وتنافسوا فيه تنافس الديار بالأنس المقيم .

ولكنه فيما نقل لم يطمئن هناك ، فاحتمل على مضض بين
زمانه ، وبُعْدَ قطره ، ثم اشتعلت عليه مدينة طنجة بعد
خلع ملوك الطوائف وتوفي بها رحمه الله .. وهو القاتل :

أقول له وقد حيا بكأس

لها من ميسك رقت ختام

أمن سخديك تُعصرُ ؟ قال : كلا

مقى عُصرت من الورْدِ المُدامُ !

ويروون - أيضاً - أنه كان خبيراً بأسرار اللغة العربية ،
فإن تآليفه في علم القراءات تدلُّ على ذلك ، وأنه كان بصيراً
بشئون الحياة ، فإن في الاغتراب وصُحبة الأمراء والملوك
عونا على فهم دقائق الوجود ..

* * *

والقصيدة التي نطالعها الآن هي أشهر قصائد الحصري ،
وقد تناول فيها الشاعر بأسلوبه الموهب ولغته الرقيقة شؤوناً
شتى مما يدور عادة على لسان المحبين ، ويفضح أسرار نجاوهم
ومكتنون قلوبهم .. نكلتم عن طول الليل ، وطيف الخيال ،
وخر الرضاب ، وسيف المقلة وجناية العين وحرمة الخد
وامتعطاف الحبيب وفناء الحب . كل ذلك في إطار من

الشاعرية الصادقة ، والتعبير البليغ الموحى ، والخيال السامي
الطليق .

يقول الحصري في قصيدته : « يا ليلُ : الصبُ متى
غدُهُ ؟ » .

يا ليلُ : الصبُ متى غدُهُ ؟
أقيامُ الساعةِ موعدهُ (١)
رقدَ السَّارُ فأرقَّه
أسفُ للبَّينِ يُردِّدُهُ (٢)
فبكاهُ النجمُ ورقَّ له
مما يرعاهُ ويرصدُهُ
كلِّفُ بغزالٍ ذي هَيْفٍ
خوفُ الواشينِ يُشرِّدُهُ (٣)
نصبت عيناى له شركاً
في النومِ فعزَّ تصيِّدُهُ (٤)

(١) الصب : العاشق المستهام .

(٢) البين : الفراق والبعد .

(٣) كلِّف : مولع ومتيم ، أهيف : رقة الخصر وضمور البطن ورشاقة
القوام . يُشرِّدُهُ : يبعده ويحمله لا يقوِّ في مكان .

(٤) الشُّرك : حبالل الصيد ، المصيدة . عزَّ : امتنع وصعب .

وكفى عجباً أني قنصٌ
 للشربِ سباني أغيبده^(١)
 صنمٌ للفتنة منتصبٌ
 أهواه ولا أتعبده^(٢)
 صاجر ، والحرُ جنى فيه
 سكران اللعظِ معربدُه^(٣)
 ينضو من مقلته سيفاً
 وكأن نعاماً يغمدُه^(٤)
 فيريق دمَ العشاق به
 والويل لمن يتقلده^(٥)
 كلا ، لا ذنبَ لمن قتل
 عيناه ، ولم تقتل يده

* * *

-
- (١) قنص : صياد . سباني : صادي وأسري بحسنة . الأغيد : الناهم
 المثني . المقصود به الحبيب .
 (٢) صنم للفتنة : تمثال للفتنة .
 (٣) جنى له : ثرة له . اللعظ : باطن العين .
 (٤) ينضو : يستل ويتزعج .
 (٥) يريق : يسفك ، يتقلده : يحمله .

يا من جحدتُ عينا دمي
 وعلى خديسه تورده (١)
 خذاك قد اعترفا بدمي
 فعلام جفونك تجحده
 انني لأعبدك من قلبي
 وأظنك لا تتعمده (٢)
 بالله هب المشتاق كرى
 فلعل خيالك يسمده (٣)
 ما ضرّك لو داويت ضنّي
 صبة يضيئك وتبعده
 لم يُبق هواك له رمقا
 فليبك عيسه عوده (٤)
 وغدا يقضي أو بعد غد
 هل من نظّر يقوده (٥)

-
- (١) جحدت : أنكرت . تورده : احمراره ، والمقصود الإشارة الى
 حمرة دم العاشق المقتول .
 (٢) أهينك : أزهك .
 (٣) هب : امنح ، الكرى : النوم .
 (٤) عوده : جمع هائد ، ذائر الريض .
 (٥) يقضي : يهلك ويموت . يقوده : يستمتع به ويناله .

يا أهلَ الشوق لنا شَرَقُ
 بالدمع يفيضُ مَوْرِدُهُ (١)
 يسوى المشتاق لقاءكمو
 وصروف الدهر تبعده (٢)
 ما أحلى الوصلَ وأعذبهُ
 لولا الأيامُ تنكته
 بالبين وبالهجرانِ ، فيا
 لفؤادي .. كيف تجلده (٣)

-
- (١) يَشْرُقُ بالدمع : يفيض ويختلق .
 (٢) صروف الدهر : أحداثه ونوائبه .
 (٣) تجلده : تحمله وتصبره .

صلوات في هيكل الحب

لأبي القاسم الشابي

لعلها أشهر قصائد الحب في الشعر العربي الحديث كله .

وهي شهرة لم تنلها بين شدة الأدب ومحبي الشعر، إلا بقدر ما كانت صيحةً جديدةً في عالم التعبير الشعري عن تجربة الحب .. وكانت جدتها وأصالتها وإيقاعها الموسيقي المتناغم هي حيثيات ذبوعها وانتشارها وحفظ الكثيرين لها .

تلك هي قصيدة « صلوات في هيكل الحب » للشاعر التونسي الخالد أبي القاسم الشابي .. الذي عبر سماء الشعر العربي ، شهاباً مباغتاً ، لم يكد نوره يشع ويسطع ، حتى اختطفته يد المنون في ريعان الشباب ، وهو لم يجاوز من العمر خمسة وعشرين ربيعاً ، فانطلقاً الشهاب الساطع ، وسكت الوتر الجديد المتفرد .

ولد أبو القاسم عام ١٩٠٩ لأبٍ من علماء الدين هو الشيخ

محمد بن بلقاسم الشابي سليل أسرة « الشابية » التي واهبت حياتها للعلم ، بعد أن أنجبت - في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين - كوكبة من حملة القلم والسيف ، امتلأ بهم التاريخ التونسي . . وكان الأب من خريجي الأزهر الشريف ، به درس أول الأمر مقيماً في مصر سبع سنين ، ثم درس بجامعة الزيتونة في تونس سنتين أخريين حصل بعدهما على شهادة « التطويع » - وهي شهادة إتمام الدراسة بالكلية الزيتونية آنذاك - ثم عيّن قاضياً شرعياً بعد عام واحد من مولد ابنه الأكبر أبي القاسم ، فتصرف في قضاء كثير من البلدان التونسية . وإلى هذا الأب ، يعود الفضل في التكوين الفكري والخلقي الذي أتبع لأبي القاسم . وفي ذلك المناخ الوداع الهادي ، تفتحت مداركه واستيقظت أعماقه ، ووجد في صداقته لأبيه نعم المعين على فهم ما حوله والتطلع إلى الخبىء الذي لم يتكشف بعد .

يقول أبو القاسم عن أبيه : « لقد أفهمني معاني الرحمة والحنان ، وعلمني أن الحق خير ما في هذا العالم وأقدس ما في هذا الوجود » .

ثم يتاح لأبي القاسم خلال سنوات عمره الباكر لون من الرحيل والتطواف والتنقل لازم الأسرة عشرين عاماً ، ضربت خلالها في البلاد التونسية طولاً وعرضاً ، متنقلة من « قابس » إلى « سليانة » و« فتالة » ، ومن « مجاز الباب » إلى « رأس

الجبل ، « فزغوان » ، وواعية شاعرنا الملهم تلتقط وتخزن ،
وترى وتتأمل ، وتنتفتح وتكتمل ، وتتلئ بسحر ألوان الطبيعة
التونسية ، وتنوع لهجاتها ، واختلاف عاداتها ، وتعدد بيئاتها ،
ثم هو ينقل بصره بين غابات الصنوبر والثوج الراقدة على قمم
الجبال ، متأملاً حياة الرعاة في الوديان ، بين شياهم وأغنامهم
وقطعانهم ، يعيشون حياة الفطرة والبساطة ، وحياة من
استوطنوا المدن وابتلوا بشرور ما حملته المدنية إليهم من زيف
ومجاعة لطبيعة العصر وفساد في الخلق والطباع .

ويتلى وجدان الشاعر الصغير السن ، ويتضخم رصيده
من تجربة الحياة ، ويتدفق معين شاعريته ، وتزدهر ريشته ،
فتبدع أجمل الألوان واللوحات ، وتشدو فيثارتة بأعذب
ما عرفه شعرنا الحديث من أنغام ، تتجه كلها صوب الحب
والطبيعة والنفس الانسانية المعذبة ..

درس الشابي في جامع الزيتونة وهو في الثانية عشرة من
عمره ، واكتملت له صول الثقافة العربية وينابيع التراث العربي
في أزهى عصوره ، بالإضافة إلى اطلاعه على روائع الأدب
العربي الحديث في مصر والعراق وسوريا والمهجر ، وبدأ
شعره يصافح الأسماع عام ١٩٢٣ وهو في الرابعة عشرة من
عمره ، وسرعان ما تأكد نبوغه المبكر ، ونضجه الشعري
الخارق ، ونوالت قصائده ، في مجلة « النهضة » التونسية ،
ثم في مجلة « أبولو » المصرية التي كان يصدرها الدكتور أحمد

زكي أبو شادي ، والتي كانت سفيراً للذوق الشعري الجديد في الوطن العربي ، وللقلم الفنية الجديدة ، داعية لها ومبشرة بها ، ولأبولو يرجع الفضل في ذبوع شهرة الشابي ، على مستوى الوطن العربي كله ، وتأكيده منزلته الشعرية بين شعراء جيله ، طليعة ورائداً ، وشهاباً ساطعاً متفرداً ، ووتراً شادياً بأجل وأعذب ما ألهمته إلهة الشعر ..

وينكب الشاعر بوفاة والده ومعلمه وصديقه عام ١٩٢٩ ، فتنوء حساسيته الشديدة بوقع الكارثة ، ثم يضطلع بأعباء الأسرة الكبيرة ويختار الطريق الوعر - رافضاً باب الوظيفة الحكومية - مؤثراً حياته البسيطة على رأس أسرته في « توزر » حيث تزوج ..

وفي السنة نفسها يصاب الشابي بداء تضخم القلب ، وهو ابن الثانية والعشرين ، وينهاء الطبيب عن الإرهاق النفسي والفكري ، خاصة عن الانفعال الشعري المتقد ، لكنه لا يبالي بنصائح الطبيب ، ويواصل إنتاجه شعراً ونثراً ، ويصبح حديث الأوساط الأدبية في كل الوطن العربي مشرقه ومغربيه ، بل إن الدكتور أحمد زكي أبو الشادي - أمين جماعة أبولو - يكل إليه كتابة تصدير ديوانه « الينبوع » .

وفي صيف ١٩٣٤ يشرع الشاعر المريض المرهق في جمع ديوانه « أغاني الحياة » على أمل أن يطبعه في مصر ، لكن المنية تباغته بعد أن اشتد به المرض ، ويموت في مدينة تونس

فجر ٩ أكتوبر ١٩٣٤ ثم ينقل جثثه إلى بلدته « توزر » حيث قبره .

يقول عنه معاصروه وأصدقاؤه : « كان نحيف الجسم ، مديد القامة ، قوي البديهة ، سريع الانفعال ، حاد الذهن ، تكفكف رقيقة طبعه من غرُب عاطفته (حدة عاطفته) وحدة ذهنه ، يراه أصدقاؤه بشوشاً كريماً وديماً متأنقاً طروباً لمجالس الأدب يحب الفكاهة الأدبية ، ويراه من لم يخالطه حبيياً محتشماً ، ويعرف منه هؤلاء وأولئك صراحة حازمة قوية يُبديها لخاصة خلطائه في غير ما تخرج متى اجتمع بهم ، ويحاور بها العامة في شعره ونثره . وكان محباً لبلاده صادق الوطنية ، يفيض وجدانه بآمال بلاده وآلامها ، ويؤمن بأن لقادة الفكر رسالة إنسانية سليمة حاول جهده أن يحققها خلال حياته القصيرة - كالشهاب - قولاً وعملاً .. »

* * *

والقصيدة التي نطالعها الآن لأبي القاسم الشابي ، قرأها الناس لأول مرة في مجلة أبولو التي ظلت تصدر بين عامي ١٩٣٢ ، ١٩٣٤ في القاهرة ، وسرعان ما جذبت الاهتمام وشدت الأنظار إلى هذا الوتر الجديد ، وهذه اللغة الشعرية الجديدة ، وهذا التناول الجديد لتجربة الحب في الشعر الحديث بصورة غير مسبقة ؛ في إطار من الخيال العالي المرنح ، يمتح من أصول بيئته التونسية الجميلة ، ويوثي مواكب شعره بصور

أخاذاة فائنة . ودهش الشعراء والأدباء والقراء لهذه اللوحة الشعرية الفاتنة التي استطاع الشابي - في اقتدار وأصالة وتمكن - أن يرسمها لحبيته ، وأن يجعل منها كائناً سماوياً يفيض رقة وطهرأ وشفافية ، بل ملاكاً من ملائكة الفردوس 'يحيي في الأرض روح السلام والمحبة ، وربيعاً تخلص به الدنيا ، وتفتي على موكب الحياة ، وتنثني روحه الكثيرة الحزينة بالحب وتشدو كالبلبل الغريد ، وينطلق من جديد طموحه ونبضه وتوجهه ، ويحيا فيه ما كان قد جف ومات من عذاب الأمان وحلو التفريد ، فهي روح الربيع وهي أنشودة الأناشيد وهي سحر الشباب ، وهي موسيقية اللغات والخطوات ، وهي مي الحياة في أجمل صورها وأنصرها وأحفلها بالبهجة والأمل والاشراق ، وهي فوق حدود الخيال والشعر والفن ، وهي قدس الشاعر ومعبده وصباحه وربيعه ونشوته وخلوده .. وهي معبوده الذي يخشع دوماً لروعته وجلاله وجماله ..

فهل رأى الناس - قبل الشابي - بحبوبة على هذه الصورة الفاتنة ، الأسرة ، المكتمة لونا ونقماً وعطراً ؟ وهل عرف شعرا العربي قبل هذه القصيدة الفاتنة ، مثل هذا الافتنان في رسم ملهمة الشاعر وتجسيدها باعتبارها كل ما حوله من جمال : الطبيعة والكون والوجود والربيع والصباح والدفء والحياة والنجوم والطهارة والأناشيد والموسيقى والنشوة والخيال !

وتأمل القصيدة ، فيأسرنا هذا النفس الشعري النامي
المطهر ، وهذه الموسيقى المتلاحقة المناسبة ، وهذه الصور
الشعرية الفاتنة المعبرة ، وهذا العشق الصادق العنيف ، لكن
عشق طاهر نقي يذكرنا بعشق العذريين أمثال: قيس وجميل
وعروة وأضراهم .. بل إنه ليذكرنا بعشق المتصوفة ، الذين
تغالوا في حبهم ، وامتزج فيه العاشق والمعشوق ، والإنسان
بالحقيقة الكلية المطلقة ، وبلغوا مرتبة الحلول عشقا وصعودا
ووصولا إلى حيث سلام الطمأنينة ، وقدمية الوصال .

ويختتم الشابي رائعته بصلاة شعرية حساسة ونداء هامس
آسر، يتوجه به إلى حبيبته التي يشيد سحر عينيها جمال كونه
والتي يفجر إلهام حسننها حقيقة عالمه ، يسألها ألا تهدم ما شاده
الحسن في فؤاده من عوالم غنية خصبة وبخيلات عذبة مؤنسة ،
وآلا تسحق آمال نفسه المتطلعة إلى حياة هائلة وادعة في ظل
من تحب وتهوى .

والآن إلى قصيدة الشابي :

صلوات في هيكل الحب

عذبة أنت :

عذبة أنتِ ، كالطفولة ، كالأحد
سلام ، كاللحن ، كالصباح الجديد
كالسما الضحوك ، كالليلة القمر
سراء ، كالورد ، كابتسام الوليد^(١)
يا لها من وداعة وجمال
وشباب منعّم أملود^(٢)
يا لها من طهارة تبعث التقى
سديس في مهجة الشقي العنيد
يا لها رقة تكاد يرفّ الـ
سورد منها في الصخرة الجلمود^(٣)
أي شيء 'مراك ؟ هل أنت ؟ فينو
من « تهادت بين الوري من جديد^(٤)

(١) القمر : القمر ، المضيئة بنور القمر .

(٢) الأملود : الناعم .

(٣) الجلمود : الصلابة القاسية .

(٤) فينوس : الهة الجمال في الأساطير اليونانية .

لتميد الشباب والفرح الم
سول للعالم التعيس العميد^(١)
أم ملاك الفردوس جاء إلى الأر
ض ، ليُحيي روح السلام العميد^(٢)

أنت ما أنت ؟

أنت ما أنت ؟ أنت رسم جميل
عبقري من فن هذا الوجود
فيك ما فيه من غموض وعمق
وجلال مقدس معبود
أنت .. ما أنت ؟ أنت فجر من السم
ر ، تجلسي لقلبي المعبود^(٣)
فأراه الحياة في مونتق الحـ
ر ، وجلّسي له خفايا الخلود^(٤)

(١) العميد : المضي .

(٢) العميد : القديم ، العريق .

(٣) المعبود : الذي يُثمه العشق والهيام .

(٤) مونتق : ناضر . جلّسي : كشف وأظهر .

أنت روح الربيع ، تختال في الدنـ
 يا فتية رائعات الورود
 وتهب الحياة سكرى من العطـ
 ر ويدوي الرجود بالتغريد (١)
 كلما أبصرتك عيناى تشيـ
 ن بخطوي موقّع كالنشد
 خفق القلب للحياة ، ورف الزـ
 هر في حقل عمري المجرود (٢)
 وانتشت روحي الكئيبة بالحبـ
 وغنت كالبلبل الغريد (٣)
 أنت تحيين في فؤادي ما قد
 مات في أمسي السعيد الفقيد
 وتشيدن في خرائب روحي
 ما تلاشى في عهدي المجدود (٤)

(١) يدوي : يسمع له صوت . الدوي : الصوت والرنين والصدى .

(٢) المجرود : القفر الذي لا نبات فيه .

(٣) الغريد : الشادي .

(٤) المجدود : المخطوط ، المتعم .

من طموحٍ إلى الجمالِ إلى الفنِّ
 إلى ذلك الفضاء البعيدِ
 وتبشّين رقصة الشوق والأحلام
 والشذور والهوى في نشيدي^(١)
 بعد أن عانقتُ كآبة أيتام
 مي فؤادي وألجمتُ تغريدي^(٢)
 أنت أنشودة الأناشيد غنّا
 لله الغناء رب القصيد
 فيك شبّ الشباب وشجّه السّحرُ
 وشدّوُ المسوى وعطر الورد^(٣)
 وتراءى الجمال يرقص رقصاً
 قدسياً ، على أغاني الوجود
 وتهادت في أفق روحك أوزان
 الأغاني ورقة التغريد
 فتأملت في الوجود كلحن
 عبقرى الخيال حلو النشيد

(١) الشذور : الغناء .

(٢) ألجمت : أسكت وأخرس .

(٣) وشجّه : ريشه .

خطوات^١ سكرانة بالأناشيد
 دِ وصوت كرجع ناي^(١) بعيد^(١)
 وقسوام يكاد ينطق بالآل
 حات^(٢) في كل^(٢) وقفة وقمود
 كل^(٣) شيء موقّع فيك^(٣) حق
 لفنة الجيد واهتزاز النهود^(٤)
 أنت^(٤) .. أنت الحياة في قدسها السا
 مي وفي سحرها الشجي^(٤) الفريد^(٤)
 أنت^(٤) .. أنت الحياة في رقة الفج
 ر^(٤) وفي رونق الربيع الوليد^(٤)
 أنت^(٤) .. أنت الحياة كل^(٤) أوان^(٤)
 في رواء^(٤) من الشباب جديد^(٤)
 أنت^(٤) .. أنت الحياة ، فيك وفي عيذ
 يك^(٤) آيات سحرها الممدود

(١) الرجوع : الصدى .

(٢) مرقّع : منغم . الجيد : المنق . النهود : جمع نهد ، الصدر .

(٣) الرونق : البهاء والنضرة .

(٤) الرواء : البهاء والحسن .

أنتِ .. دنيا من الأناشيد والأحلام
والسحر والخيال المديد
أنتِ فوق الخيال والشعر والفن
وفوق النشئ وفوق الحدود^(١)
أنتِ قدسي ومعبدتي وصباحي
وربيعي ، ونشوتي ووجودي

يا ابنة النور :

يا ابنة النور إنني أنا وحدي
من رأى فيك روعة المعبود
فدعيني أعيشُ في ظلك العذ
ب وفي قرب حسنك المشهود
عيشةً للجمال والفن والإلهام
والطهر والسنا والسجود^(٢)
عيشةً للناسك البتول ينجي الر
ب في نشوة الدهول الشديد^(٣)

(١) النشئ : العقول .

(٢) السنا : الاشرار واللعان والاضاءة .

(٣) البتول : المنقطع عن الدنيا الى الله ، والمنقطع عن الزواج .

وامنحني السلام والفرح الرو
 حي يا ضوء فجرى المنشود^(١)
 وارحميني فقد تهدمت في كوة
 ن من اليأس والظلام مشيد
 أنقذني من الأسى ، فلقد أم
 سبت لا أستطيع حل وجودي
 في شعاب الزمان والموت أمشي
 تحت عبء الحياة آجم القيود^(٢)
 وأماشي الورى ونفسي كالقبة
 سر ، وقلبي كالعالم المهدود^(٣)
 ظلمة ما لها ختام ، وهول
 شائع في سكونها المسدود
 وإذا ما استخفني عبث النسا
 من تبسمت في أسى وجود^(٤)

(١) المنشود : المرجو والمأمول .

(٢) شعاب : جمع شعب ، الطريق والمسلك .

(٣) أماشي : أصانع .

(٤) استخفني : حملني على الجحون واللهو والطيش .

بسمةٌ مُرّةٌ ، كَأَنِّي أُسْتَلُّ
من الشوكِ ذابلات الورود^(١)
وانفخي في مشاعري مَرَحَ الدُّرِّ
سِيا وشِدْثِي من عِزْمِي المجهود^(٢)
وابعْثِي في دمي الحرارة عُلْيَا
أَتَغْنِي مع المَنَى من جَدِيدِ
وأُبْثُ الوجودَ أنفاسَ قَلْبِي
بَلْبِلِي ، مَكْبِلِي بِالْجَدِيدِ^(٣)
فَالصَّبَاحُ الْجَمِيلُ يَنْعَشُ بِالْدَفْءِ
وَحَيَاةُ الْمُحْطَمِّ الْمَكْدُودِ^(٤)
أُنْقَذِينِي ، فَقَدْ سَمْتُ ظِلَامِي !
أُنْقَذِينِي ، فَقَدْ مَلَّتْ رُكُودِي^(٥)

(١) أُسْتَلُّ : انزع .

(٢) المجهود : المجهود ، المتعب .

(٣) مَكْبِلِي : مقيد .

(٤) الْمَكْدُود : الشديد الإرهاق والهموم .

(٥) الرُّكُود : عدم الحركة وعدم التجديد والتغيير .

آه يا زهرقي :

آه يا زهرقي الجميلة لو تد
رين ما جدّ في فؤادي الوحيد
في فؤادي الغريب تخلق أكوا
ن من السحر ذات حسن فريد
وشمس وضياء ونجوم
تنثر النور في فضاء مديد
وربيع كأنه حلم الشا
عر في سكرة الشباب السعيد (١)
ورياض لا تعرف الحلك الداء
جي ، ولا ثورة الخريف العتيد (٢)
وطيور سحرية تتناغى
بأناشيد حلوة التفريد

(١) سكرة : نشوة .

(٢) الحلك : الغلام .

وقصورٌ كأنها الشفق الخُ
 ضوب أو طلعة الصباح الوليد^(١)
 وغيومٌ رقيقةٌ تهادي
 كأبديد من نثار الورود^(٢)
 وحياةٌ شعريّةٌ هي عندي
 صورة من حياة أهل الخلود
 كلُّ هذا يشيده سحر عيني
 لك ، وإلهام حسنك المعبود^(٣)
 وحرامٌ عليك أن تهدمي ما
 شاده الحسن في الفؤاد العميد^(٤)
 وحرامٌ عليك أن تسحقي آ
 مال نفس تصير لعيش رغيد^(٥)

(١) المصوب : المصبوغ بما يشبه لون الدم .

(٢) أبديد : مرق متناثرة .

(٣) يشيده : يصنعه ويحققه .

(٤) العميد : المتم ، العاشق .

(٥) تصير : تتطلع وتهفو .

مِنكَ تَرْجُو سَادَةً لَمْ تَجِدْهَا
فِي حَيَاةِ الْوَرَى وَمِيعَرِ الْوُجُودِ^(١)
فَالْإِلَهَ الْعَظِيمَ لَا يَرْجُمُ الْعَبْدُ
دَعَاءً إِذَا كَانَ فِي جَلَالِ السُّجُودِ

(١) الْوَرَى : الْخَلْقُ .

القصر العاشق

للشاعر علي محمود طه

تأثني : وهل أحببت مثلي
وكم معشوقة لك أو خلية ؟
فقلت لها - وقد همت بكأسي
إلى شفي راحتها النخيلة -
نسيت ، وما أرى أحببت يوماً
كحبك ، لا ، ولم أعرف مثيلة
فقلت لي ، جوابك لم يدع لي
إلى إظهار ما تخفيه حيلة
وفي عينيك أسراراً حيارى
تكذب ما تحاول أن تقولة !
فقلت : أجل ، عرفت هوى الغواني
لكل غاية ولها وسيله

إذا طالعنني أنسيتُ جرحي
وأنت الحب لم يرحم قتيله
وجاذبني إلى اللذاتِ قلبُ
شقيّ ضلّ في الدنيا سبيله
وعدت كما ترين صريع كأسٍ
أنا الظلمات لم يطفئ غليله
فقلت : كيف تضعف ؟ قلت : ويحي
وكيف أطاع شمشون دليله ؟
فقلت : ما حياتك ؟ قلت : حلم
من الأشواق أوثرُ أن أطيله
حياتي قصة بدأت بكأسٍ
لها غنيتُ ، وامرأة جميلة !

أجل ، هذا هو مفتاح المفاتيح الى عالم الشاعر الملاح علي
محمود طه ، إلى أعماق وجدانه ، ومسارب قلبه ، وحقيقته
حبه ومعاناته ..

والمرأة في حياة علي محمود طه شيء أساسي ، لا غنى عنه ،
وبدونهُ لا يكون للحياة معنى ، ولا للفن حياة ، ولا للشعر
نوهج أو حرارة ..

لقد عرف شاعرنا المقرف ، الكثير الأسفار ، الباحث
أبدأ عن الجمال ينشده ويتصيد ، عرف الكثيرات من كل
لون وجنس ، وذاق شق الطعوم والصنوف ، وارتطمت تجاربه
بعشرات النماذج الإنسانية ، بين شهوة الجسد ومودة الروح
ومتعة الصداقة وبراءة التعاطف والرعاية .

والدارسون لشعر علي محمود طه ، والمتأملون فيه ، يرون
أنه كان دائم البحث في جسد المرأة ، لأن فيه اللذة وقد
اقتترنت بعبادة الجمال ، كأنما المرأة - كانت بالنسبة إليه -
المعبر الرئيسي لكل شعور يبحث عن القيم الجمالية فيما وراء
الواقع الجامد وصوره الحسية ..

يقول عنه الناقد الراحل أنور المعداوي :

« هكذا كان علي محمود طه في حياته ، وهكذا كان في
شعره . لا تفرقة بين تذوق اللذة وبين تذوق الجمال ، ولا فصل
بينهما في عالم الشعور أو عالم منظور ، لقد عشق المرأة في
صورة الجسد اللذيذ وعشق في الجسد اللذيذ صورة المعنى الجميل ،
ومن هنا امتزج الإحساسان في نفسه حتى لقد أصبحا وحدة
متناسكة ليس إلى تجزئتها من سبيل ، إن فيه « الرجل » الذي
أقبل على المادة ، وإلى جانبه « الشاعر » الذي أقبل على
الروح ، وهما لوثان من الحب بينهما من القرب ما يلغي الفواصل
ولا يعترف بالأبعاد .. هناك رجل لا يستهويه من الزهرة غير
اللذة المجردة التي ينقلها إليه طيب الرائحة ، وهذا هو المزاج

العادي الذي يقصر التذوق على اللذة المادية، وهناك رجل آخر لا يقصر التذوق على مثل تلك اللذة ما دام إلى جانبها جمال تعشقه الروح ، لأن الزهرة عنده لونٌ وعطر ، لون يبهر ، وعطر يفوح . وهذا هو المزاج غير العادي لأنه مزاج الفنان ، مثل ذلك الرجل الأول صاحب مزاج لا يمكنك أن تصفه بأنه مزاج رفيع ، لأنه يستقبل المشهد المادي ممثلاً في الزهرة بحاسة واحدة ، وكأن الحواس الأخرى قد فقدت وظائفها الرئيسية . هذه الحاسة الواحدة التي نعنيها هي حاسة الشم التي تبحث عن العطر ولا تبحث عن شيء سواه ، وسواء لديها وجدته في الزهرة أم وجدته في زجاجة العطر ما دامت كل منها تنفح الشعور بنشوة الرائحة . لو اشتركت عنده حاسة النظر مع حاسة الشم لغدت الزهرة في إحساس العين والأنف ، وهي كما قلنا لون وعطر ، ولتحول هذا الإحساس الخارجي بعد ذلك إلى إحساس داخلي هو في لغة النفس لذة وجمال ، وهنا نجد المزاج الفني المرفف عند الرجل الأخير .

في مقدمة قصيدة له بعنوان : « هي وهو » يقول علي محمود طه :

« جمعتهما المصادفة فأحسًا بذلك الانعطاف الروحي البريء الذي يقرب ما بين القلوب ويمزج بين الأرواح .. وأحسًا بالهوة

العقيقة العريضة التي تفصل بينها ، فتحدث إليها عن ذلك
الحب اليائس وألمه الممض ، وأن القدر لا يريد لها السعادة .

تري ، ما هي حقيقة تلك الفتاة التي أحبها علي محمود طه
وأحبتة وبعثت إلى لياليه بالسهد وإلى شعره بالحنين وإلى عينيه
بالدموع ؟ وما هي حقيقة تلك الهوة العريضة التي يشير إليها
ولا يفصح ، ويتحدث عنها ولا يبين ، تلك الهوة الرهيبة التي
فجرت فاما لتلتهم أمله الكبير في امتداد الحياة ؟

يبدو من شعره في الحب - الذي يضم عصارة قلبه
وخلصة نفسه ووجدانه - أنه على كثرة الغاديات والرائحات
من حوله كان يبحث عن امرأة معينة ، امرأة تملأ في قلبه
مكاناً خاصاً ظل منذ الطفولة وهو شاعر ينتظر ضيفه الحبيب ،
لقد لقي المرأة وهي في ثوب الخلية ، ولقي المرأة وهي في ثوب
الصديقة ، ولكنه لم يلق المرأة وهي في ثوب الأم ، هذه المرأة
التي يمكن أن تشغل البقعة الخالية في وجوده الداخلي بحنان
الأمومة ، لكم بحث عن هذا النموذج الأنثوي الذي يسد فراغاً
تركته الأم وهو صغير ، حتى لقد ظل يتطلع إليه بلهفة الطفل
التي لم ينتزعها من بين جنبي الرجل تعاقب الأيام .. فقد الشاعر
أمه الحانية ، ففضى العمر يبحث عن ظلها في صورة زوجة ،
زوجة تشاطره الحياة ، وتنسى الطفل الكبير أنه يتيم !

والقصيدة التي نطالعها الآن للشاعر الملاح ، ليست قصيدة
حب مباشرة ، بقدر ما هي لوحة فنية فاتنة ، وصورة شعرية
نادرة ، رسمها الشاعر ، وافتن في إبداعها وإكسابها إيقاعها
الموسيقي الموائم ، وجرسها المنشود ، وألوانها وظلالها الرائعة ،
مخاطباً بها ذات الغلالة الرقيقة النائمة تحت نافذتها المفتوحة
في ليالي الصيف القمرية .

أول ما يشدهنا في هذه القصيدة الجميلة موسيقاها الداخلية
الأخاذاة ، ليست موسيقى الرنين أو . . . ريقى الألفاظ التي
تخاطب الأذن ، ولكنها موسيقى الهمس الشعري تهز مسارب
العاطفة وروافد الشعور ، اندفاعاً وتوقفاً ، انسياباً وتهديجاً ،
ولإسراعاً وإبطاءاً ، ارتفاعاً أو انخفاضاً . . . وفرق بين موسيقى
تنقل للشعور المتلقي لحظة الغضب ، وموسيقى 'تمثل' لحظة
الدهشة واللفه أو لحظة الأسى والحنين .

ثم هذا القمر العاشق ، يصوره الشاعر ويبدع في تصويره ،
فإذا هو بالفعل عاشق يمتلئ حياة وصبوة واشتهاء ، يتسلل من
نافذة المحبوبة يتأمل جسدها الفائق ويتحسس ، ويتوقف عند
مواطن الفتنة فيه ، والشاعر تمتلكه الغيرة الجامحة من هذا
المتسلل الذي لا يملك له دفماً ولا ردّاً ، ومن هذا المتيسم الذي
سباه جمال الفاتنة وكأنما أعطى جمالها من قوة التأثير
ما استطاعت أن تغري به حتى الجاد ، فإذا بالقمر - وهو

مَنْ هو رفعةٌ وسناءٌ وعلو منزلة ومكان - أسير جالها ،
وعبد فتنتها ، وتابع سلطانها ، تأمره وتتحكم فيه ، وتستبيح
وتصبيه !

ونتابع مقاطع القصيدة لنصل إلى حيث يصور الشاعر
هيام القمر العاشق وقد حاول أن يقبل ثغر المحبوبة وأن
يلفّ نهدا وأن يضم الجسد .. فباءت محاولاته بالخيبة
والفشل ، ولم يصب منها شيئا ، وكأن الشاعر يحاول أن يرضي
شعوره الدفين بالغيرة ، وأن يريح هواجس نفسه المشتعلة بالألم
وهو يرى القمر متسللا إلى حيث لا يستطيع هو أن يصل أو
يشاهد أو يلمس .

والآن ، مع القصيدة التي اخترناها من بين صفحات ديوانه :
« ليالي الملاح التائه » وهو ثاني دواوينه ، سبقه صدور ديوانه
الأول « الملاح التائه » ، ثم تتابعت دواوينه : « أرواح وأشباح »
و « أغنية الرياح الأربع » و « الشوق العائد » و « شرق وغرب »
و « زهر وخر » ، حتى كانت وفاته عام ١٩٤٩ .

« القمر العاشق »

إذا ما طاف بالشرفة	ضوء القمر المضيئ
ورفء عليك مثل	الحلم أو إشراق المعنى

وأذت على فراش الطهر كالزنبقة الوسنى
فضمتي جسمك العاري وصوني ذلك الحسناء

أغار عليك من ساب كائن لضوئه لنا (١)
تدق له قلوب الحور أشواقاً إذا غشى
رقيق اللبس عريده بكل مليحة يُعنى
جريء إن دعاه الشوق أن يقتحم الحصنا

تحدّر من وراء الغيم حين رآك واستأنى (٢)
ومسّ الأرض في رفقٍ يشقّ رياضها الفتا
عجبت له وما أعجب كيف استلم الرصعنا !
وكيف تسوّر الشوك ، وكيف تسلّق الغصنا !

(١) ساب : أسر بالحب . الحور : جمع حوراء . يقال : عين حوراء :
أي اشتد بياض بياضها وسواد سوادها .. وهذا من صفات الحسان .

(٢) تحدّر : نزل من علوه وارتفاعه . استأنى : ثأنى وقهل وترفق .

على خديك خرّ صباية أفرغها دنّا (١)
رحيقٌ من جنى الفتنة لا ينضب أو يفنى (٢)
وفي نهديكِ طلسمانٍ في حلّهما افتنّا (٣)
إلى كنزهما المعبود بات 'يعالج' الرثنّا (٤)

أغار ، أغارُ إن قبّل هذا الثغر أو تنثى
ولفّ النهدي في لينٍ وضم الجسد اللدنّا (٥)
فإن لضوئه قلبا وإن لسحره جفنا
يصيد الموجة العذراء من أغوارها وهنّا (٦)
وكم من ليلة لنا دعاء الشوق واستدنى

(١) الدن : الكأس .

(٢) الجنى : الثمار .

(٣) طلسمان : لفران .

(٤) الردن : أصل الكم ، وطرف الكم الواسع (أي أن القمر العاشق كان يحاول التسلل من داخل أكام الحناء) .

(٥) اللدن : اللين ، الناعم .

(٦) أغوارها : أعماقها البعيدة . وهنّا : ضيقا ، كسولا ، متراخيا ،
أو هي بمعنى : الوقت بعد منتصف الليل .

جثا الجبارُ بين يديك طفلاً يشتكي الغَبْنِ (١)
أراد فلم ينل ثغراً ، ورام فلم يصب حَضْناً
حوَتَكَ ذراعهُ رَمماً ، وأنت حوَيْتَهُ فَنّاً

عصيت هواه فاستضرى كأنَّ بصدرة جنّاً (٢)
مضى بالنظرة الرعناء يطوي السهل والحَزْنَ (٣)
يثيرُ الليلَ أحقاداً وصدْرَ سحابِهِ ضفناً (٤)
وعاد الطفلُ جبّاراً يهزُّ صراعُهُ الكونا

(١) الغبن : الظلم .

(٢) استضرى : اشتعل وقمره واحتاج .

(٣) الرعناء : الحفاء أو الموجاء . الحَزْن : المكان المرتفع الوعر
من الأرض .

(٤) الضفن : الكراهية .

فردّي الشرفة الحمراء دون الخدع الأسنى (١)
وصوفي الحسن من ثورة هذا العاشق المضنى
مخافة أن يظنّ الناس في خدعك الظنّ
فكم أفلقت من ليلٍ وكم من قمرٍ جُنّا !

(١) ردي الشرفة : أغلقها . دون الخدع : أي لتعجب هذا الخدع
وتخفيه عن الأنظار (حتى لا يراه القمر العاشق) .

[الأطلال]

للدكتور إبراهيم ناجي

« هذه قصة حب عائر ، التقيا وتحاببا ، ثم انتهت القصة بأنها هي صارت أطلال جسد ، وصار هو أطلال روح ، وهذه الملحمة تسجل وقائعها كما حدثت . »

بهذه الكلمات ، يقدم الشاعر إبراهيم ناجي للمحكمة الشعرية « الأطلال » ، التي يضمها ديوانه « ليالي القاهرة » ، ثاني دواوين الشاعر ، التي نُشرت في حياته ، أولها « وراء الغمام » صدر سنة ١٩٣٤ ، والثاني « ليالي القاهرة » صدر سنة ١٩٥١ ، أما الديوان الثالث « الطائر الجريح » فقد نُشر بعد أربع سنوات من وفاة الشاعر ، التي كانت في ٢٤ مارس عام ١٩٥٣ .

ولقد ظلت الأطلال عملاً شعرياً لا يعرفه إلا الخاصة من الدارسين وشُدادة الأدب ومتبعمي الشعر ، حتى أتيح لبعض

مقاطعها أن تصل إلى أسماع الملايين على متن صوت أم كلثوم ،
عند ذلك ذاعت شهرتها، وتناقلتها الألسنة والأسماع، وأصبحت
أشهر ما تعيه ذاكرة العامة من شعر ناجي .

أما صاحب الأطلال ، ففلم شعري بارز في حركة الشعر
المصري الحديث ، ورائد من رواد جماعة أبولو التي ازدهر
نشاطها بعد إنشائها عام ١٩٣٢، والتي كان يرأسها أمير الشعراء
أحمد شوقي ، ويتولى أمانتها الدكتور أحمد زكي أبو شادي ،
تلك الجماعة التي أسهمت بدور بارز في تطوير الشعر الحديث ،
وربطه بالوجدان الانساني ، وأصبح لها طابعها المتميز ، متمثلاً
في شعر طائفة من شباب الشعراء ، كان ناجي ألمهم شاعرية
وأكثرهم أصالة وتميزاً ، عرفوا بأصحاب الاتجاه الرومانتيكي
الغنائي ، وكان من بينهم أبو شادي وعلي محمود طه والهمشري
وحسن كامل الصيرفي وزكي مبارك وأحمد رامي وصالح جودت
وآخرون .

والتأمل في شعر ناجي ، يطالعنا - أول ما يطالعنا -
هذا الطابع الحزين القاتم ، يضي على قصائده مسحة من
الأسى والشحوب ، ويحمل هذا الطابع كل سمات الحزن
والانطواء والوجد والهيام والهروب والانطلاق والتمرد
والتعلق بالطبيعة والتشبث بالحب .

ولقد ساعدت حساسيته المفرطة ، ومزاجه الرومانتيكي ،
وبنيته الجسمية الضئيلة - فقد كان قصير القامة ضئيل الجسم
ساذج الملامح - ساعد ذلك كله في تأكيد هذا الحزن الكامن
في وجدانه ، المترسب في القرار البعيد من أعماقه ، مخلفاً
لديه شعوراً طفولياً ورغبة طفولية في أن يعاين ويداعب كل
من يصادف من النساء ؛ ويفتح وجدانه بالفعل لكل زهرة
أنثوية يلتقي بها ، وكأنه كان ينشد أبداً حبا لا يجده ولا
يصل إليه ، وتأكيداً لذاته كان يفتقده في نفسه ولدى الآخرين ،
وأنتى له - وهو على هذه الصورة - أن يكون فتي الأحلام
المرجو أو فارس النساء المعدود .

وفي قصيدته الطويلة ، أو ملحنته « الأطلال » كما يسميها ،
تطالعنا أيضاً خصائص فن ناجي وشاعريته : روح شعري
شفاف ، وصياغة بيانية مشرقة ، وتعبير آسر بالصورة الشعرية
المتنامية والمتآزرة وخيال مجنح ، يصل بالتجربة الشعرية إلى
آفاق وتخوم لم تقتحم من قبل ، وقدرة خارقة على التصوير
والتجسيد والتجسيم ، وموسيقى شعرية تعصر وجدان المتلقي
وهو يطالع مقاطع القصيدة ، ويتنقل بين روافدها المتجمعة ،
ويستمع إلى صوت الشاعر الأسيان المفجوع في مواجهة إرادة
القدر وصوت القضاء ، ثم وهو يخاطب الريح التي كانت تعري
قلبه إغراء النصيح الفاجر بالنسيان والتأسي ، والريح هنسا
- في هذه القصيدة - رمز للشياطين الحاقدة ، تنتهز الفرصة

لتسمى بنشر السموم ، ولكن هيات ، فالشاعر مؤمن بقضائه
وقدره ، هذا القدر الذي تمثل له في وجه محبوبته ، شيء
خُلِق له من قبل أن يخلق هو ..

أيها الريح أجل ، لكننا
هي حبي وتعلّاتي وبأسي
هي في الغيب لقلبي خلقت
أشرققت لي ، قبل أن تشرق شمسي

وهو معترف بأن غرامه الحसार المتوهج قدرٌ في طعم
الموت ، قدر مشنوم ، حوّل عمره إلى مأتم ، ولم يترك له من
عمر البهجة وأعراسها ساعة واحدة :

يا غراماً كان منشي في دمي
قدراً كاللوت ، أو في طعمه
ما قضينا ساعة في عُرْبهِ
وقضينا العمر في مأتمه

ولكنه ، بالرغم من ذلك كله ، متعاطف أشد التعاطف
مع صرعى القضاء ، وضحايا المقادير ، يذوب قلبه حنوًّا
وألمًا ومشاركة :

أيها الشاعر : كم من زهرة
'عوقبت' ، لم تدر يوماً ذنبها !

فإذا عدنا الى الأطلال وجدناها صورة صادقة الملامح لقصة
الحب المأساوية ، الدامية الختام .. تتأوج مقاطعها بكل ما في
قصص الحب ، من تذكّر ولوعة وحسرة ، ومواقف انطلاق
وصبوة وغفلة عن فعل الزمان وتبدل الأيام ، وافتتان بالحب
ذلك الذي يرقى بالإنسان الى عالم أسمى وأسمى ، فيدمن الرقي
والطموح نحو سماء غير منظورة ، ويلتقي الحبيبان في قمتها
المنفردة ، ويبحران بسرّيهما ، ويريان الناس من تحتها ظلالاً
في السفوح ، وفجأة يتغير الحال ، وتعبث المقادير ، ويضرب
القضاء ضربته ، وسرعان ما يهوي التمثال الذي صنعه العاشق
لنفسه ، من أحلامه وأوهامه ومطامحه وأشواقه وتصوراته ،
من أسى حرمانه وعنفوان تطلّعه ، ويصبح الحبيبان - في
غضة عين - منفيّين في فياقي الحياة ، وصحرائها ، يواجهان
الأشواك والصخور ، والجذب والظلام والحظوظ السود والليل
الضريّر ، وتملأ الهواجس نفس العاشق ، وتتعاور معه
الكائنات . ماذا عليه لو نسي أو قنّاسى ؟ ماذا عليه لو ودّع
هذا الغرام اليائس وهذا الحب القاتم المدمّر ؟ وتهمس الريح
في أذنيه بنصحها الشرير : إن من حوله القلوب والنساء بعدد
الرمل ، فليتخير من يشاء ، وليبدأ من جديد صفحة حبه
الجديد ، وليؤمن من الآن أن الناس جميعاً من طين ومساء ،
فأبناء السماء لا يعيشون على الأرض !

لكنّ الشاعر العاشق لا يستمع إلى هذا كله ، ولا يفتح له

نوافذ قلبه ، إنه مؤمن بقدره ، محتضن لقضائه ، مستسلم للنهاية
الأليمة الفاجعة :

فإذا أنكر خيل خله
وتلاقينا لقاء الغربة
ومضى كل إلى غايته
لا تقل شئاً ، فإن اللحظة شاء

* * *

هذه هي الأطلال ، ملحمة ناجي ، ولوحة حبه الأخاذة
الرائعة ، الناطقة بقدرته الخارقة على التصوير والتجسيد ،
والتعبير عمن المعنويات في صورة المحسوسات ، ورسم الجو
العاطفي والنفسي المحيط بالمشهد في بكافة أبعاده وعناصره ،
وقدرته على توفير الايقاع الموسيقي المواكب لحركة النفس
والشعور بسطاً وانقباضاً ، إشراقاً وعتامة ، انطلاقاً وعبوساً ،
ثم على تنويع هذه الايقاعات كما فعل في المقاطع التي ضمنها
حديث الريح وممسها الى الشاعر عندما تخيلها تنصحه وتماتبه
على التماذي في الحب المعذب ، فقد صاغ الشاعر مقاطعه هذه
من بحر الرمل - الذي نظم منه قصيدته كلها - ولكن من
مجزوء البحر وليس من البحر بكامل تفاعيله ، فجاء هذا
التنوع الموسيقي انعكاساً للتنوع التعبيري والشعوري في مواقف
التجربة الشعرية ، ومفارقة بين طبيعة الفقرات التي يتحدث

فيها الشاعر بنفسه ، والفقرات التي يترك فيها عنان
الحديث لغيره .

يبقى بعد ذلك أن نشير الى طبيعة هذا البحر الشعري
الذي صاغ منه ناجي ملحنته الشعرية : « بحر الرمل » ،
فالمعروف أنه من البحور الهادئة الموسيقى ، المهيوسة الإيقاع ،
الملائمة كل الملاءمة لمثل هذه التجربة الشعرية العميقة التي عبّر
عنها ناجي أجمل تعبير ، وصوّرها أروع تصوير .

الأطلال

« هذه قصة حب عائر ، التقيا وتحابا ، ثم انتهت
القصة بأنها هي صارت أطلال جسد ، وصار هو
أطلال روح ، وهذه الملحمة تسجل وقائعها كما
حدثت » .

يا فؤادي ، رحم الله الهوى
كان صرحاً من خيال فهى^(١)
أسقي واشرب على أطلاله
وارو عنثي ، طالما الدمع روى

(١) الصرح : القصر أو البليان العظيم الشاهق .

كيف ذاك الحبُّ أمسى خبراً
وحديثاً من أحاديث الجوى
وبساطاً من ندامى حُلُمٍ
هم تواروا أبداً ، وهو انطوى

يا رياحاً ، ليس يهدأ عصفها
نَضَبَ الزيتُ ومصباحي انطفأ^(١)
وأنا أقتاتُ من وهمٍ عفا
وأفي العُمرَ لناسٍ ما وفى^(٢)
كم تقلبتُ على خنجريه
لا الهوى مال ، ولا الجفنُ غفا
ولإذا القلبُ - على عُفْرانه -
كلما غارَ به النصلُ عفا^(٣)

(١) نضب : نفذ وانتهى .

(٢) عفا : رحل وانقشع .

(٣) النصل : طرف الرمح أو السهم .

يا غراماً كان منسي في دمي
قدراً كالموت ، أو في طعمه
ما قضينا ساعة في عرسه
وقضينا العمر في مآتمه
ما انتزاعي دمة من عينه
واغتصابي بسة من فيه
ليت شعري أين منه مهربي
أين يمضي هارب من دمه ؟

لست أنساك وقد ناديتني
بفهم عذب المنااة رقيق
ويد تتهدي نحوي ، كيد
من خلال الموج مدّت لفريق
آه يا قبلة أقدامي ، إذا
شكت الأقدام أشواك الطريق
وبريقاً يظلم الساري له
أين في عينيك ذبائك البريق؟^(١)

(١) الساري : المسافر ليلاً .

لست أنساك ، وقد أغريتني
بالذرى الشم ، فأدمنت الطموح^(١)
أنتِ روحٌ في سمائي ، وأنا
لكِ أعلو ، فكأنني محضُ روح
يا لها من قمٍ كنتُ بها
تتلاقى ، وبسرّينا نبوح
نستشفُ الغيبَ من أبراجها
ونرى الناسَ ظلالاً في السفوح

أنتِ 'حسنٌ' في ضحاء لم يزل
وأنا عندي أحزانُ الطّفّل^(٢)
وبقايا الظلّ من ركبٍ رحل
وخيوط النور من نجمٍ أفل
ألمح الدنيا بعيني سيم
وأرى حولي أشباحَ الملل

(١) الذرى الشم : النعم المرتفعة ، يقصد بها الآمال والأهداف
الرفيعة .

(٢) الطّفّل : وقت الغروب .

راقصاتٍ فوق أشلاء الهوى
مُعولاتٍ فوق أجداث الأمل^(١)

ذهب العمرُ هباءً ، فاذهي
لم يكن وعدك إلا شبحاً
صفحة قد ذهب الدمر بها
أثبت الحبّ عليها ومحا
انظري ضحكي ورقصي فرحاً
وأنا أحمل قلباً دُبحاً
ويراني الناس روحاً طائراً
والجوى يطحنني طعن الرّحى^(٢)

كنت تُمسك خيالي ، فهوى
المقادير أرادت لا يدي
ويحها ، لم تدرك ماذا حطمت
حطمت تاجي ، وهدّأت معبدي

(١) أجداث : قبور ، جمع جدث . مُعولات : باقيات بشدة .

(٢) الرّحى : الطاحون .

يا حياة اليأس المنفرد
يا يباباً ما به من أحد (١)
يا قفاراً لافحات ما بها
من نجيٍّ ، يا سكون الأبد (٢)

* * *

أين من عيني حبيبٌ ساحرٌ
فيه نبلٌ وجلالٌ وحياة
وائق الخطوة يمشي مَلَكاً
ظالم الحُسن ، شهيد الكبرياء
عبق السحر كأنفاس الربى
سام الطُرف كأحلام المساء
مشرقُ الطلعة ، في منطق
لغة النور ، وتمييز السماء

* * *

أين مني مجلسٌ أنتِ به
فتنةٌ تمت سناء وسنى

(١) اليباب : القفر ، الخراب .
(٢) نجي : أنيس ، رفيق يفضي إليه بالنجوى .

وأنا حبٌ وقلبٌ ودمٌ
وفراشٌ حائرٌ منكِ دنا
ومن الشوق رسول بيننا
ونديمٌ قدم الكأس لنا
وسقانا ، فانتفضنا لحظةً
لغبارِ آدميٍّ منا (١)

* * *

قد عرفنا صولة الجسم التي
تحكم الحي ، وتطفئ في دماه (٢)
وسمعنا صرخةً في رعدِها
سوطُ جلّاد ، وتعذيبُ إله
أمرتنا ، فعصينا أمرها
وأبينا الذلُّ أن يفشى الجباه
حكم الطاغى ، فكنتا في العصاة
وطُردنا خلف أسوار الحياة

* * *

(١) الغبار الآدمي : يقصد به نشوة الجسد وشهوته .

(٢) صولة : سطوة وقهر وغلبة .

يا لمنفيين ضلًا في الوعور
دميًا بالشوك فيها والصخور
كلما تقسو الليالي ، عرفًا
روعة الآلام في المنفى الطهور
طردًا من ذلك الحلم الكبير
للحفظ السود ، والليل الضير^(١)
يقبسان النور من روحيهما
كلما قد ضنت الدنيا بنور^(٢)

* * *

أنتِ قد صيرتِ أمري عجبًا
كثرت حولي أطيّار الرّبي
فإذا قلتُ لقلبي ساعةً
قمْ نغرد لسوى ليلي أبى
حجبٌ قأبى لعيني مأربًا
غيرَ عينيك ، ولا مطلبًا

(١) الضير : الأذى ، والمراد به الشديد الظلمة

(٢) يقبسان : يستمدان ويستلهان .

أنتِ من أسد لها ، لا تدّعي
أنني أسدلتُ هذي الحجاباً^(١)

* * *

ولكمّ صاح بي اليأسُ انتزعها
فبردُ القدرُ الساخر : دَعَهَا
يا لها من خطّةٍ عيباء ، لو
أنني أبصر شيئاً لم أطمعها
وليّ الويلُ إذا لبثتُها
وليّ الويل إذا لم أتبعها
قد حنّنتُ رأسي ، ولو كلّ القوى
تشتري عزّة نفسي ، لم أبعها

* * *

يا حبيباً زرتُ يوماً أَيْكَةً^(٢)
طائرَ الشوق ، أغنّني ألمي^(٣)

(١) الحجاب : الستائر والموانع .

(٢) الأيكة : الشجرة الكثيفة المتلصقة ، وهي رمز للكان الذي
يطل العشاق .

لكَ إبطاءُ الدلالِ المنعم
وتجنّتي القادرِ المهتمكم (١)
وحنّني لكِ يكوي أعظمي
والثواني جرات في دمسي
وأنا مرتقب في موضعي
مرهف السمع لوقع القدم

قدمٌ تخطو ، وقلبي مشبه
موجةٌ تخطو إلى شاطئها
أيها الظالم : بالله إلى كم
أسفح الدمع على موطنها
رحمةٌ أنت ، فهل من رحمةٍ
لغريب الروح أو ظامئها
يا شفاء الروح ، روحي آسني
ظلمَ آسيها ، إلى بارئها (٢)

(١) تجني : ظلم وقسوة .

(٢) الآسي : الطبيب ، والداوي . البارئ : الخالق ، أو الذي شفي
من مرضه .

أعطني حريقي أطلق يديّ
إنني أعطيتُ ما استقيتُ شيّ
آه من قيدك أدمى معصيّ
لم أبقيه ، وما أبقى عليّ ؟
ما احتفاظي بعهودٍ لم تصنها
ولآلم الأسر ، والدنيا لديّ (١)
هاأنا جفنت دموعي ، فاعفُ عنها
إنها قبلك لم تبذل لحيّ

وهب الطائر من عشك طارا
جفنت الغدران ، والثلجُ أغارا
هذه الدنيا قلوب جددت
خبث الشعلة ، والجرّ قواري
وإذا ما قبس القلب غدا
من رمادٍ ، لا تسله كيف صار (٢)

(١) الأسر : الحبس والسجن .

(٢) القبس : شعلة النار .

لا تسل ، واذكر عذاب المصطلي

وهو يذكيه ، فلا يقبس ناراً^(١)

لا رعى الله مساءً قاسياً

قد أراني كل أحلامي سدى

وأراني قلباً من أعبد

ساخراً من مدمعي سخر العدا^(٢)

ليت شعري ، أي أحداث جرت

أزلت روحك مجناً موصداً^(٣)

صدت روحك في غيبها

وكذا الأرواح يعلوها الصدا^(٤)

قد رأيت الكون قهراً ضيقاً

خيم اليأس عليه والسكوت

ورأت عيني أكاذيب الهوى

واميات كخيوط العنكبوت

(١) المصطلي : من يوقد النار بقصد الاستدفاء .

(٢) سخر : سخرية .

(٣) موصداً : مغلقاً .

(٤) الغيب : الظلام .

كنت ترثي لي ، وتدري ألمي
لو رثى للدمع تمثال صموت
عند أقدامك دنيا تنتهي
وعلى بابك آمال تموت

كنت تدعوني طفلاً ، كلما
ثار حبي ، وتندت مقلي^(١)
ولك الحق ، لقد عاش الهوى
في طفلاً ، ونسا لم يعقل
وأرى الطعنة إذ صوبتها
فشت مجنونة للمقتل
رمت الطفل ، فأدمت قلبه
وأصابت كبرياء الرجل

قلت للنفس وقد جزنا الوصيда
عجتي لا ينفع الحزم ويئدا^(٢)

(١) تندت : ابتلت بالدموع .
(٢) الوصيـد : المر الضيق المطبق .

ودعي الهيكلَ شئت ناره
تأكل الركعَ فيه والسُّجودا
يتمنى لي وفائي عودةً
والهوى المروح يأبى أن نعودا
لي نحو اللهب الذاكي به
لفتة العودِ إذا صار وقوداً^(١)

لست أنسى أبداً ساعةً في العمرِ
تحت ريح صفقتْ لارتقاصِ المطرِ^(٢)
نوّحتْ للذكر وشكت للقمر^(٣)
وإذا ما طربت عربدت في الشجر
هالكة ما قد صبّت الريحُ بأذن الشاعر
وهي تغري القلبَ إغراءَ الفصيح الفاجر :
« أيتها الشاعر تغفو تذكر العهدَ وتصحو
وإذا ما التام جرحُ جدِّ بالتذكّار جرحُ »^(٤)

(١) الذاكي : المشتمل ، المتأجج .

(٢) ارتقاص المطر : حركة المطر أثناء انهياره بغزارة .

(٣) الذكر : الذكريات .

(٤) التام : التام ، أي برئ ، شفي .

فتعلم كيف تنسى وتعلم كيف تمحو
أو كلُّ الحب في رأيك غفرانٌ وصفح ؟

هاك فانظر عسده الرملِ قلوباً ونساء
فتخبر ما تشاء ذهب العمرُ هباء
ضلّ في الأرض الذي ينشدُ أبناء السماء
أيُّ روحانية تعد صر من طينٍ وماء !

أيها الريح أجَلٌ ، لكننا
هي حبي وتعلّاتي ويأسي
هي في الغيب لقلبي خلقت
أشرقت لي ، قبل أن تشرق شمسي
وعلى موعدها أطبقت عيني
وعلى تذكّرها وسدت رأسي

جنّت الريح ونادته شياطين الظلام
أختاماً ! كيف يحلو لك في البدء الختام ؟
يا جريحاً أسلم الجرح حبيباً نكاه
هو لا يبكي إذا الناعي بهذا نبأه

أيها الجبار هل تصرع من أجل امرأه ؟

يا لها من صيحةٍ ما بعثت
عنده غير ألم الذِّكر^(١)
أرقت في جنبه ، فاستيقظت
كبقايا خنجر منكسر
لمس النهر وناداه له
فمضى منحسداً للنهر
ناضباً الزاد ، وما من سفر
دون زادٍ غير هذا السفر^(٢)

يا حيي كل شيء بقضاء
ما بأيدينا خلقنا نساء
ربما تجمعنا أقدارنا
ذات يومٍ بعدما عز اللقاء
فإذا أنصر خل خلته
وتلاقينا لقاء الغرباء

(١) الذكر : الذكريات .

(٢) ناضب : فارغ .

ومضى كل* إلي غايته
لا تقل شئنا، وقل لي الحظ* شاءا

يا مُغْنِي الخلد ، ضيّعتَ العُمُرَ
في أناشيدٍ تُفْنِي للبشر*
ليس في الأحياء من يسمعا
ما لنا لنا نغني للحجر*
للجهاداتِ التي ليست نعي
والرمياتِ البوالي في الحفر^(١)

غنّها ، سوف تراها انتفضت
ترحم الشادي ، وتبكي للوتر

يا نداءً كلما أرسلته
رُدّ* مقهوراً وبالخط* ارتطم
وهتافاً من أغاريد المنى
عاد لي وهو نواح وندم
رُبّ* تمثالٍ جمالٍ وسنا
لاح لي والعيش شجو وظلم

(١) الرميات البوالي : الجثث البالية ، يقصد الموتى .

ارتقى اللحن عليه جاثياً
ليس يدري أنه 'حسن أصم' (١)

هدأ الليل ولا قلب له
أيها السامر يدري حيرتك
أيها الشاعر خذ قيثارتك
غنّ أشجانك ، واسكب دمعك
ربّ لحن رقص النجم له
وغزا السحُب ، وبالنجم فتك
غنّه ، حتى ترى ستر الدجى
طلع الفجر عليه فانهتك

وإذا ما زهرات 'ذعرت'
ورأيت الرعب يغشى قلبها
فترفتى واثد واعزف لها
من رقيق اللحن ، وامسح رعبها

(١) جاثياً : راکماً .

ربما نامت على مهد الأسي
وبكت مستصرخات ربّها
أيها الشاعر ، كم من زهرة
عوقبت ، لم تدّر يوماً ذنبها !

أقبلي كالصلاة

للشاعر محمود حسن إسماعيل

هو الشاعر الوحيد - من بين شعرائنا الأحياء (١) - الذي آثرت أن اضمّن هذه المجموعة إحدى قصائده العاطفية ، بل أحلى ما قاله في الحب : قصيدته « أقبلي كالصلاة » ، التي يضمها ديوانه « مكثدا أغني » الذي صدر عام ١٩٣٧ ، وقبله كان الديوان الأول « أغاني الكوخ » عام ١٩٣٤ ، ثم تتابعت رحلة الشاعر الثرية والخصبة من خلال دواوينه : أين المفر ، نارٌ وأصفاد ، قاب قوسين ، لا بد ، التأهون ، صلاة ورفض ، نهر الحقيقة ، وهدير البرزخ .

في شعر محمود حسن إسماعيل مذاق خاص ، ما أسرع ما يضافعنا ونحن نتأمل كلماته وأنغامه ، مذاق يختلط فيه عبير صعيد مصر ، بروائح الريف المصري ، بطقوس العبادات المتراكمة على ضفتي الوادي على مدار التاريخ السحيق ، فرعونية وقبطية وإسلامية ، ويختلط فيه أيضاً تكوين الشاعر المتكسب

(١) توفي الشاعر عام ١٩٧٧ .

على ثقافة شرقية إسلامية ، ترفدها تطلعات الشاعر المستمرة
الى الانفتاح على آفاق التجربة الشعرية المعاصرة ، في الوطن
العربي ، وعلى الصعيد الانساني كله .

هذا المذاق الخاص ، المتميز ، المركب ، هو الذي يجعلنا
نكتشف أن لشعر محمود حسن إسماعيل قاموساً خاصاً ، قاموساً
فريد الدلالات والإيحاء ، عميق الهمس بالصور والرموز ، لا بدءاً
من اكتشاف أغوار الشاعر - الضاربة الأعماق في التاريخ
والحياة - للوصول إلى حقيقة هذه الدلالات ، وإعطائها
ما يطابقها في عالم الصحو ، عالم النثر اليومي ، معانيها المباشرة ،
ولإلا ظلت مغاليتق هذا القاموس الشعري متأبّيةً علينا
لا تمنحنا نفسها ، ولا تكشف لنا عن حقيقة مراميها ، قبل
أن نستطيع الكشف عن نوعية هذا الشاعر المتمايز ، وطبيعة
وجدانه الشعري المتكاثف ، المتعدد الدوائر والروافد
والأصول .

يلفت النظر في شعر محمود حسن إسماعيل أيضاً ، فضلاً عن
هذا المذاق الخاص والقاموس الشعري الخاص ، مصريته ،
طابعه المتناغم مع روح الانسان المصري في صدامه وارتطامه
مع بعدي الزمان والمكان ، هذه المصرية شيء أكبر من مجرد
الاهتمام التسجيلي بظواهر الحياة أو البيئة ، أعمق من مجرد
تناول مألوف الحياة على وجه هذا الوادي في أشجارها ونباتاتها
وألوانها ، إنها نفاذ الى السر البعيد في وجدان الانسان ، قدرة

على استكناه الأغوار البعيدة في أعماقه ، تلك الأغوار التي
يتاح لشتى الروافد والجداول أن تنصب فيها ، وسرعان ما
تتمثلها ، وتحفظ لنفسها - بعد ذلك - سميتها الأصل غير
مشوب ، وإن أصبح أكثر ثراء وعمقا وخصوبة .

هذه المصرية كامنة أعمق الكون فيما يمكن تسميته بـ «السر»
هذا الخاطر الكوني الملحّ على محمود حسن إسماعيل : الشاعر
والإنسان ، وهو السرّ نفسه الذي استوقف المصري القديم
أمام تجربة الشروق والغروب فبنى الأهرام واكتشف معنى
الخلود ، وأمام فيضان النيل والمحساره فعبد النيل وقدم
الحياة ، واستوقف المصري الحديث أمام هتاف المآذن ورنين
أجراس الكنائس ودوران دولاب الحياة على ظهر هذا الوادي
المثقل بتراكمات السنين وأعبياء الأزمنة وميراث الأجيال .
وما يزال السر الغامض لغزاً ، لكنه في أعماق شاعرنا إغراء
يقظ ، ونداء صامت أخرس ، وتوهج دام في لحظات الغيبوبة
الروحية ، والانسلاخ من ذثر الواقع اليومي ، بحثاً عن شعر
الحياة في ليلها الساكن الوديع .

وبالإضافة إلى المذاق الخاص والقاموس الشعري المتفرد ،
والبحث الدائب عن السر ، تقمصاً وتعبيراً ، إفضاءً وخوفاً من
التصريح ، يدهشنا في شعر محمود حسن إسماعيل هذه الرؤية
الكلية للإنسان والحياة ، إن التجارب الشعرية عنده تستمد
قيمتها وغناها من هذا الإطار الأكبر الذي نطالعه فيه ،

فيبدو الجزء في إطار الكل ، وتكتسب التفاصيل الصغيرة معناها الدائم والسرمدى ، ويصبح الإنسان المنفرد على ظهر هذا الكوكب وتراً في لهاة الطبيعة وبضعة من الإرادة العليا القاهرة ، وحصة في جسر الوجود البشري المتراكم ، وينفس القدر : تصبح الشجرة المنفردة صوتاً شعرياً يضيح بجدها الطبيعية للكون ، وترديداً لصوت الرياح المعبر عن ملحمة الوجود والعدم وهكذا ..

محمود حسن إسماعيل إذن هو شاعر التجارب الكبرى ، شاعر الرؤى الكونية الشمولية ، شاعر ما وراء الجزئي والمنزل والمنظور ، إن - شيئاً ما - يستهوي دائماً بصيرته الشعرية النفاذة ، فإذا هو يطالع في الوجه الواحد عشرات الوجوه ، وفي المعنى الواحد عشرات التنويعات من المعاني ، وفي الصوت الواحد جنازة كاملة من الأصوات أو سيمفونية متداخلة - ربما غير متجانسة - من الحوارات !

نرى ، إلى أي مدى يكشف محمود حسن إسماعيل من خلال رحلته الشعرية المتنامية ، المثقلة بهبات العطاء الشعري الرفيع عن هذا السر ؟ عن إطار هذه الرؤية الكونية التي متى يفصح الشاعر عن محاور قلقه العميق ، ووتر شجنه الكوني المأساوي ، ويضع أيدينا على حائط مبعك الحقيقي دون جزع أو خجل أو وجل ؟

أنا والنأي والحياة

وسر* في طوايا النفوس 'يخفيه برقع !
كلما سلته شعاعي من الليل ،
على موضع ، 'يداريه موضع
لست في حيرة ، ولا في وقوف
فع الله نظرتي تتطلع
كلما فر طائر ، حاصرته ..
فأثاما من حالك التيه يخشع
هدأة .. وانطلاقة
وإذا النور على الدرب
يستهل ، ويسطع !

وتأملوا معي بعض عناوين دواوينه : قاب قوسين ،
لا بد ، صلاة ورفض ، نهر الحقيقة ، هدير البرزخ ، لتدركوا
أي ربح قلأ هذا الشراع ، وأية وجهة يقصدها هذا الملاح
المغامر ، الضارب أبداً في 'عباب الجهول !

ولكن لماذا هذه القصيدة بالذات .. « أقبلي كالصلاة » !
إنها ليست من ديوانه الذي أفرد به بكامله لتجربة حبه العظيم
الدمر ، هذا الحب الذي عصف به الشك ، فدمر جدران
معبد ، وزلزل قوائم محاريبه - ديوان « أين المفر » ..
وليست من شعره الأخير ، الذي يتآزر فيه نضج التجربة ،

واكتال الأدوات الشعرية ، ووفرة المواد الأولية التي أتاحت للشاعر ، الذي أصبح أقل خشونة وقسوة مع نفسه ومع الحياة ، وإن كان أشد توهجاً بحقيقة الشعر ومتطلبات الفن .

ربما كان اختياري لها السبب ذاتي محض ، فديوان « هكذا أغني » هو أول ما وقعت عليه من شعر محمود حسن إسماعيل ، كنت وقتها حدثاً غريباً ، مفتوناً بشعراء المدرسة البيانية المحافظة ، القوية النسيج ، الرصينة القوافي ، الجزلة التعبير : من أمثال شوقي وحافظ والجارم ، وكما يتميز الضد بالضد ، فقد تميز في نفسي شعر محمود حسن إسماعيل على الفور ، واستهواني ، فانكببت عليه وأعرضت عما سواه ، وكان دليلي - فيما بعد - إلى حساسية الشعر المعاصر كله بوجه عام ، والشعر الجديد .. بوجه خاص .

في ذلك العهد كانت قصيدة « أقبل كالصلاة » مزموراً للحب ، نتناشده فيما بيننا ، ونترنم بإيقاعاته وموسيقاه ، الممتدة ، الطويلة النفس ، ثم اختبطفتنا صور القصيدة ولوحاتها الشعرية المتتابعة : صورة الزورق الشريد الحيران في مهب الريح العاتية تحت جنح الدياجير ، والشاطئ المرجى بعيد .. ولا أمل يلوح ، وصورة الأيكة الوارفة الظلال تمنح الأمان والسكينة ، والواحة السخية يفيء إليها العاشق المُجهد هرباً من هجير الأسى ، وصورة الفجر منسكباً على الحقول يمنحها حياة وصلابة ونشوة وتهللاً ، وصورة أنسام الفجر ترغرف

وتذوب على حفيف السنابل ساكبة شعر الحياة الهامس المهنح،
 وصورة هذه الـ «أنت» التي يكررها الشاعر في مستهل ثمانية
 عشر بيتاً من قصيدته ، كل بيت منها ينطق بقسمة من قسّمات
 هذه الحبيبة ويضفي لوناً إلى لوحها الأخاذة الفاتنة ، وهي
 تذكرنا بصورة الـ «أنت» التي صاغها أبو القاسم الشابي في
 رائعته «صلوات في هيكل الحب» والتي استهل بها أيضاً
 اثني عشر بيتاً من أبيات قصيدته ، كما يذكرنا البحر الشعري
 لقصيدة محمود حسن إسماعيل بالبحر الشعري: النفسي والنغمي
 الذي صيغت منه قصيدة الشابي وهو «بحر الحفيف» ،
 بتفصيلاته المسترخية الممتدة كأنها حركة مجذاف يضرب وجه
 الماء في هدوء ودعة وانسياب ، كذلك تذكرنا صرخات محمود
 حسن إسماعيل ونداءاته في ختام قصيدته واستغاثاته المتتابعة
 بحبيبته التي يراها قادرة على أن تمنحه الحياة والإبداع والطموح:

فتعالى نقيباً عن ضجة الدنـ
 يا ، ونمضي عن الوجود ونرحل
 وإلى 'عشنا الجميل' ، ففيسه
 هزجٌ للهوى ، وظلٌ وجدول
 أقبلي .. قبل أن تميل به الريد
 ح ، ويهوي به الفناء المبعجل
 أقبلي .. فالجراح ظمأى ، وكأسُ الـ
 حبيبٌ نكسنى ، والشعرُ نايٌ معطّل

تذكرنا صرخات هذا الختام ، بصرخات الشايّ ونداءاته
المتتابعة أيضاً في ختام قصيدته :

أنقذيني ، فقد سئمتُ ظلامي
أنقذيني ، فقد مللتُ ركودي

ثم وهو يقول :

وحرامٌ عليك أن تهدي ما
شاده الحسن في الفؤاد العميد

وحرامٌ عليك أن تسحقني آ
مالَ نفسٍ تصبو لعيشٍ رغيد

فالإله العظيم لا يرحم العبد
د ، إذا كان في جلال السجود

* * *

يبقى أن 'تتاح' لهماين القصيدتين دراسة نقدية مقارنة ،
تكشف عما بينهما من مناخ نفسي مشترك ، وتخطيط شعري
متماثل ، كما تكشف عما فيها من تفرّد وتمايز وأصالة ، وكلتاها
صادرة عن وجدان شعري عميق ، ممتلئ بتجربة الحياة ،
شديد الحساسية لإيقاعات الكون ، متلاحم النسيج مع صور
الطبيعة وظلالها ، فناءً صوفياً ، وانجذاباً روحياً ، ونزوعاً
إلى التطهير والتطهر في محراب الطبيعة ، وديرتها الأقدس ،

وهي نزعة حارة متوهجة، نطالها دائماً في أشعار الرومانتيكيين
الكبار ، الذين كانت لهم صلواتهم وغنائياتهم وأشواقهم
حُلماً دائماً ينشد الالتحام بالطبيعة والفناء فيها والتطهر من
خلالها ..

ولسوف يجد النقد المقارن في تأمله لهاتين القصيدتين وكشفه
عن عظام الشعريين من خلالها ، قيمة فنية جديدة بالدراسة
والتنويه ، وبأن توضع بين أيدي شدة الأدب ودارسيه وأمام
أبصارهم ، متضمنة لونا من النفاذ إلى أعماق الإبداع الشعري
في أقصى حالات تدفقه وانسيابه ، وأكثرها عذوبة وجمالاً
وشفافية ..

'نرى ، متى بقدر' لشعرنا العربي أن يغني بمثل هذه
الصرخات الكونية المعارة ، المتوهجة بنفاذ الرؤية الشعرية
والوعي الإنساني ، وأن تضاف إلى « ديوان الحب » فيه مثل
هذه التراتيل الصادقة النفاذ ، العميقة المحس ، الثرية العطاء !

* * *

أقبلي كالصلاة

أقبلي

أقبلي كالصلاة ، رقرقها الندى
لك ، بمحراب عابد متبتل
أقبلي آية من الله علينا
زفتها للوجود وحي منزل
أقبلي ، فالجراح ظمأى ، وكأس الـ
حب ثكلى ، والشعر ناي معطل
أنت لحن على فمي عبقرى
وأنا في حدائق الله بلبل
أقبلي .. قبل أن تميل بنا الرية
ح ، ويهوي بنا الفناء المعجل
زورقي في الوجود حيران شاك
مثقل بامى ، شريد ، مضلل

أزعجته الرياح ، واغتناله اللّـي
ل' ، يـنـجـ من الـديـاجـير مـسـبـل^(١)
فهو في ثورةِ الحُضْمِ غريبٌ
تَخَلَّطَ النُّوْحُ بـالـمـنـى وتـنـقـل^(٢)
أقبلي يا غرامِ روحي ، فالشطُ
بعيد ، والروح باليأس مثقل
وغمام الحياة أعشى سوادي
ونور المنى بقلبي ترحل^(٣)
أنا مَيِّتٌ تغافل القبر عني
وهو إن يدرِ شقوتي ما تمهل
فاسكبي لي السَّنا وطوفي بنعشي
ينعش الروح سحرك المتهلل

(١) الـديـاجـير : الظلمات ، جمع ديجور . الجنح من الليل : الطائفة منه .
مسبل : مسدل .

(٢) الحُضْم : البحر العظيم المتلاطم الموج .

(٣) أعشى سوادي : غطى على عيني

أنت لي ،

أنت نبمي ، وأيكتي ، وظلا لي
وخيلي ، وجدولي المتسلسل (١)

أنت لي واحة أفيء إليها
ومجير الأسى يجني مشعل

أنت ترنيمة الهدوء بشعري
وأنا الشاعر الحزين المبلبل

أنت تهويدة الخيال لأحزا
لي ، بأطياف نورها أتعلل (٢)

أنتِ كأسِي وكرمِي ومدامِي
والطتلا من يدِيك سكر محلل (٣)

(١) الأيكّة : الشجرة الكثيفة الملتفة الأغصان .

(٢) أتعلل : أراسي النفس .

(٣) الطلا : الخمر .

أنت فجري على الحقول ، حياة
 وصلاة ، ونشوة ، وتهلل
 أنت تغريده الخلود بالحسا
 في ، وشعر الحياة لتغزو مهلل^(١)
 أنت طيف الغيوب رفرف بالرح
 في الطهر والهدى والتبتل
 أنت لي توبة إذا زلّ عمري
 وصحا الإثم في دمي وتلعل
 أنت لي رحمة براهما شعاع
 هل من أعين السما وتنزل^(٢)
 أنت لي زهرة على شاطئ الأح
 لام تروى بمهجتي ، وتظلل^(٣)
 أنت شعر الأنسام وسوست الفج
 سر ، وذابت على حفيف السنب

(١) اللغو : الحراء الذي لا معنى له .

(٢) براهما : خلقتها وأوجدتها .

(٣) المهجة : دم القلب ، يقصد بها « الروح » .

أنت سحرُ الغروب، بل موجة الاش
سراق، عن سحرها جنائي يسأل^(١)
أنت صفوُ الظلال تسبح في النـم
سر ، وتلهو على ضفاف الجدول
أنت عيد الأطيـار فوق الروابي
أقبل ، فالربيع للطيرِ أقبل
أنت هولي ، وحيرتي وجنوني
يومَ للحسنِ زهسوةٌ وتدلُّل
أنت دبر الهوى ، وشعري صلاة
لكِ طابت ضراعتي والتدلُّل
أنت نبع من الحنان ، عليه
أطرق الفن ضارعا يتوسل
أعين للخشوع تغري ، فخلتب
سها على لوعي تنفضُ وتُسبِّل^(٢)

(١) جنائي : فوادي وقلبي .

(٢) تنفض وتنسبل : تفلق وتنطبق .

واتركها وسحرها يتأدى
 علماً « بابل » بنجواه تشغل
 هو فني وملهمي .. فابعثيه
 فهر من زهوه شحيح مبخل
 يتغافى على الجفون ، فإن نا
 جيته ، لج في الكرى وتوغل
 وانتشى من سناك وانساب في الحد
 ظلك يحسو الضياء منه وينهل^(١)
 وانبرى من جفونك البيض كالأف
 دار يُردى كما يشاء ويقتل
 ليت لي من صراعه كل يوم
 غزوة في سكون قلبي تجلجل
 ولك الصوت ناعماً عادة الشو
 ق فأضحى حنينه يترسل

(١) يحسو : يرتشف .

نبرات كأنها شَجَسْنُ الأَوْ
 تَارِ فِي 'عُودِ' عاشقٍ مَرَحَلٍ (١)
 أو حَفِيفُ الأَذَانِ فِي مَسْمَعِ الفَجْ
 سِرِّ نَدِيٍّ الصَّدَى، شَدِيٍّ المنهل
 أو غَنَاءُ الظِّلَالِ فِي خَاطِرِ الغُدِّ
 رَانَ شَعْرٍ فِي الصَّمْتِ عَانٍ مَكْبَلٍ (٢)
 أو نَشِيدُ أَذَابِهِ الأفقِ النَّتَا
 ئِي ، وَغَنَاءُ خَاطِرِي المتأمل (٣)
 وَلَكِ البَسْمَةُ الوديعَةُ طَهْرٌ
 وَصَفَاءٌ ، وَصَبُوءَةٌ ، وَتَفْزُؤٌ
 لَذَّةُ الهَمْسِ فِي دَمِي تَنْقُلُ الرو
 حَ لَوَادٍ بِصَفْوَةٍ عَمْرِي مَظْلَلِ

(١) مَرَحَلٌ : متنقل ومفارق .

(٢) حَان مَكْبَلٌ : أسير مقيد .

(٣) النَّتَاي : البعيد .

فاسكبيها على جَنَانِي ، واخلُثِي
سحرها في مشاعري ينهدل

ولك الهداةُ التي تغمرُ الحسَّ
فيروى من السكونِ ويشمل

واحةُ للجمال ، قلبيَ فيها
من أمي الدهر ناسكٌ مُتَعَزِّل

علّمتني ظلالُها كيف أنسى
صخبَ الوهمِ وهو عصفٌ مُزَلْزَل

ولك العفةُ التي عاد منها
« مريمي » ، الستور فوقكِ مُسَبِّل

فتعالِي :

فتعالِي نغيب عن ضجة الدن
يا ، ونغضي عن الوجود ورحل

وإلى عشنا الجميل ، ففيه
 كهزج* للهوى ، وظل* ، وسلسل^(١)
 وعصافير للسنى تتغنى
 بالترانيم بين عشب وجدول^(٢)
 وغرام* مقدس ككاد يضوي
 نوره العذب في سمانا ويشعل^(٣)
 ووفاء يكاد يسطع* للندى .
 يا بشرع* إلى المحبين مرسل
 عاد للعش كل* طير* ، ولم يبـ
 سقى سوى طائر* شريد* مخبل^(٤)
 هو قلبي الذي تناسيت بنوا
 ه* ، فأضحى على الجراح يولول

(١) هزج : غناء ومرح . سلسل : الماء العذب الجاري .

(٢) الترانيم : جمع ترنية ، الأغنية أو الأنشودة .

(٣) يضوي : يتوهج .

(٤) المخبل : المجنون ، من فقد الوحي والاتزان .

أقبلي .. قبل أن تميل به الريـ
ح' ، ويهوي به الفناء المعجل^(١)
أقبلي .. فالجراحُ ظمأى ، وكأس الـ
حب تكلى ، والشعرُ ناي معطل

(١) المعجل : السريع الأكيد الحدث والوقوع .

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
٥	هذا الكتاب
١٣	فتاة الخمر
٢٣	نعم
٤١	المؤسة
٥٧	بشينة
٦٩	لبنى
٨٣	عزة
٩٥	وأعطرت لؤلؤا
١٠١	فوز
١١٣	وحيد المغنية
١٢٩	أراك عصي الدمع
١٤١	يا ظبية البان
	فاروق شوش
	المنخل البشكري
	عمر بن أبي ربيعة
	مجنون ليلى (قيس بن الملوح)
	جميل بن معمر
	قيس بن ذريح
	كثير عزة
	يزيد بن معاوية
	العباس بن الأحنف
	ابن الرومي
	أبو فراس الحمداني
	الشريف الرضي

١٥١	دوقلة المنبجي	اليتيمة
١٦٣	ابن زريق البغدادي	قمر في بغداد
١٧٣	صفي الدين الحلي	مجلس الحبيب
١٨٧	ابن زيدون	أضحى التثنائي
٢٠١	الحصري القيرواني	يا ليل الصب متى غده
٢٠٩	أبو القاسم الشابي	صلوات في هيكल الحب
٢٢٧	علي محمود طه	القمر العاشق
٢٣٩	إبراهيم ناجي	الأطلال
٢٦٥	محمود حسن إسماعيل	أقبلني كالصلاة

رقم الإيداع: ٢٢٩٧ / ١٩٩١
التقديم الدولي: ٨ - ٥٠ - ٩٠ - ٩٧٧

مطابع الشارقة

الشارقة ١٦ شارع حवाद حسن - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
بيروت عن بعد ٨١٦٤ - هاتف ٣٤٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

الموضوعية الاختيار ، المعتمدة في تصنيفها على ذوق عصري ، وفكر جديد ، يكشفان في الأثر الأدبي والشعري أبعاداً جديدة ويعيدان عرضه وتنسيقه وتنظيم جداوله ورواقده .

وَأَثَرْتُ أَنْ تَكُونَ الْبِدَايَةَ قِصَائِدَ الْحُبِّ فِي شِعْرِنَا الْعَرَبِيِّ ، وَمَا أَكْثَرُهَا ، وَمَا أَحْفَلُهَا بِالْقِيمِ الْإِنْسَانِيَةِ وَالْفَنِيَةِ وَالْحَضَارِيَةِ . مَاذَا لَوْ اخْتَرْتُ مِنْ بَيْنِهَا أَجْمَلَ عَشْرِينَ قِصِيدَةً ، لِيُعِيدَ تَامِلُهَا وَتَذُوقُهَا الْقَارِئُ الْمَعاصر ، مَعَ قَدْرِ يَسِيرٍ مِنَ التَّقْدِيمِ ، لِلنَّصِّ وَالشَّاعِرِ مَعًا ، بِحَيْثُ يَتِمُّ وَضْعُ الْقِصِيدَةِ فِي إِطَارٍ عَصْرِيٍّ ، وَفِي دَاخِلِ مَنَاحِهَا النَّفْسِيَّ وَالتَّارِيخِيَّ .

وَلَسْنَا نَزْعُ أَنْ هَذِهِ الْقِصَائِدُ ، هِيَ وَحْدَهَا أَجْمَلُ الْقِصَائِدِ وَأَرْوَعُهَا وَأَكْثَرُهَا تَمَثِيلًا لِحَقِيقَةِ شِعْرِ الْحُبِّ فِي دِيْوَانِ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ الْكَبِيرِ ، إِنَّهُ مَجْرَدُ اخْتِيَارٍ خَاصٍّ ، سَاعِدٌ عَلَيْهِ مِيلٌ وَهُوْىٌ ، كَثِيرًا مَا تَجَاذِبُنِي إِلَى بَعْضِ الْقِصَائِدِ الْمَخْتَارَةِ ، فَعُشْتُ فِيهَا طَوِيلًا ، وَتَامَلْتُهَا كَثِيرًا ، فَلَمَّا سَنَحْتُ الْفُرْصَةَ لَوْضَعِهَا دَاخِلَ هَذَا الْإِطَارِ كَانَتْ أَسْبَقُ مِنْ غَيْرِهَا إِلَى ذَاكِرَتِي وَاهْتِمَامِي ، فَعُنِيتُ بِهَا قَبْلَ سَوَاهَا ..

© دار الشروق

الطبعة ٦٦ شارع حرداء حسي - طاب ٣٣١٥٧٨ - ٣٣١٥٧٨
توزيعات مركز ب ٨٠٦٤ - طاب ٣٣١٥٧٨ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٧٦٤

إن شِعْرِنَا الْعَرَبِيَّ عَلَى امْتِدَادِ قُرُونٍ مُتَطَاوِلَةٍ حَافِلَةٌ بِالْكُنُوزِ التَّمِيْزِيَّةِ ، وَالدَّرَجَةِ الْكَامِلَةِ ، تَنْتَظِرُ دَائِمًا مَنْ يَجْلُوهَا وَيَعْرِضُهَا .

وَفِي السُّوقِ نَفْسَهُ ، مِمَّا أَنْدَرُ الْجُمُوعَاتِ وَالْمَخْتَارَاتِ الشَّعْرِيَّةِ صَدَرَتْ عَنْ مَكْتَبَتِنَا الْعَرَبِيَّةِ ، وَحَدِيثُهَا ، لَتَضَعُ بَيْنَ يَدَيِ الْعَرَبِيِّ ، وَالْقَارِئِ الْأَجْنَبِيِّ أَيْضًا ، تَصَوُّرًا عَامًّا لَسُورِجِ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ ، وَإِطَارًا عَامًّا لِابْتِرَازِ شَخْصِيَّاتِهِ وَأَعْلَامِهِ ، وَأَكْثَرِ مَلَامِحِهِ صَدَقًا وَاصَالَةً .

وظَلَمْتُ مَكْتَبَةَ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ ، تَعَانِي هَذَا الْفَرَاغَ الْكَبِيرَ ، خَاصَّةً وَنَحْنُ نَتَجَهُّ مَعَ إِيقَاعِ الْعَصْرِ وَازْدِحَامِ مُتَطَلِّبَاتِ الْحَيَاةِ إِلَى الْمَخْتَصِرَاتِ وَالْمَخْتَارَاتِ : الْمَبْثُوبَةِ ،



To: www.al-mostafa.com